قاموس الرجولة



إعداد

د. إبراهيم أحمد مسلم الحارثي

الشقري
ALSHEGREY

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحارثي، ابراهيم أحمد مسلم

قاموس الرجولة/ ابراهيم أحمد مسلم الحارثي - **الرياض** ، ١٤٣٧هـ

٢٨٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٦ - ٦٨ - ٨٠٥٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الأخلاق الإسلامية **أ. العنوان**

ديوي ٢١٢ ١٤٣٧/٥

رقم الإيداع: ٥ / ١٤٣٧

ردمك: ٦ - ٦٨ - ٨٠٥٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

٢٠١٦ م

الشقري
AL SHEGREY

الشقري
AL SHEGREY
للنشر وتقنية المعلومات
Publishing & Information Technology
المملكة العربية السعودية - الرياض
ص ب ٨٨٣٣ - الرياض ١١٤٩٢
هاتف : ٢١٧٠٢٢٧ , فاكس : ٢١٧٢٠٩٤
www.Alshegreyonline.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبناءننا وبناتنا، إلى فلذات أكبادنا، إلى الأجيال الصاعدة من أمتنا، أهدي إليكم خلاصة تجارب عدد من العلماء والحكماء عبر العصور، فهي عُصارة أفكارهم وخبراتهم وثمرة أفئدتهم، لتستفيدوا منها في حياتكم، فهي السراج الذي يجلو عنكم الظلمة، وينير لكم الطريق ويجنبكم المهالك، ومهاوي الردى، ويرشدكم إلى المسالك التي تتجاوز بكم العقبات، وتحُلُّ المشكلات، وتنجيكم من المهلكات. فاقدروا قدرها، فهي على الهدى والرشد دليل، وعلى اللّه قصد السبيل، نفعكم اللّه بها وسدد خطاكم إلى الخير وأعانكم عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي نزل الكتاب، وجعله هدى للعالمين، وارسل الأنبياء والمرسلين؛ لِيُبيِّنوا لأقوامهم سُبل الهدى، ويرشدونهم إلى الحق المبين، ويكونوا لهم أسوة حسنة، وقدوة عملية للناظرين. وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغر المحجلين، ومن اهتدى بهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى أرسل أنبياءه لتبليغ دينه بلسان أقوامهم من لَدُن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم؛ دين واحد من رب واحد بمقاصد وغايات واحدة، وشرائع مختلفة لتناسب متغيرات الزمان والمكان. فجاؤا صلوات الله عليهم جميعا بتوحيد الله والرحمة لخلق الله. ورغم أن الشرائع اختلفت في فروعها وتفصيلاتها؛ فإنها لم تختلف في غاياتها ومقاصدها. فقد جاءت جميعها بالتوحيد الخالص ولتحقيق الرحمة العامة الشاملة لجميع المخلوقات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾. وجاءت جميعها لتحقيق مكارم الأخلاق مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". أي التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من قبلي، جئت لأتممها.

وحيث أن الأمة الآن قد غرقت في مستنقع الفتنة التي لَعَنَ اللهُ من أيقظها، وأضحى الحليم فيها حيران، وهو مستنقع ناتج عن التركيز على الخلاف في

التفصيلات الفرعية، ونسيان أو تناسي الغايات الكبيرة والمقاصد النبيلة لرسالة الأنبياء والمرسلين التي اجتمعت جميعها في دين الله الذي جاء به سيد الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وأصبحت الأمة شيعاً وطوائف متناحرة وأحزاباً متشرذمة متحاربة ومتقاتلة. فليس لها مخرج من مستنقع الفتنة إلا بالعودة إلى الأصول الجامعة التي لا يختلف عليها العقلاء في جميع الطوائف والمذاهب ألا وهي كتاب الله وسنة نبيه وسنة خلفائه الراشدين المهديين. وما فيها من القيم الإنسانية الراقية االتي لا يختلف عليها الحكماء والعقلاء النزيهين. القيم التي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات. وتميز المجتمع الإنساني المدني المتحضر عن مجتمع الغاب المتوحش.

يجب أن نعلم أن هذا الكون، من خلق الله وأن الإنسان على اختلاف لونه وعرقه ودينه ولغته من خلق الله كذلك، وأن الله أوجده ليعيش في هذا الكون وينتفع بمقدراته كما تنتفع بمقدراته سائر المخلوقات. وحيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليتمم مكارم الأخلاق فقد ركزت في هذا الكتاب على القيم والأخلاق والسلوكات والعادات الجامعة التي تجمع ولا تفرق، وتنشر الخير والتسامح والإنسانية والرحمة والوُدّ بين أفراد المجتمع ونحسن الظن في بعضنا بعضا. ليحل التسامح بدل التخاصم، والإتلاف بدلاً من الاختلاف، والتّواد بدل التدابر، والتراحم بدل التحارب، والتعاون بدل التقاتل، لنعد إلى كلمة سواء بين مجتمعاتنا وأمتنا وفي جميع أوطاننا. لنتأمل ونتفكر في رأينا وفي الرأي الآخر. ولنتأمل في مقولة أئمة علمائنا السابقين "رأيي صواب يحتمل

الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. وحيث أن احتمال الصواب قائمٌ في الرأي الآخر فمن العقل والحكمة والموضوعية والنزاهة والعدالة أن نصغي إليه ونتأمل ونتفكر فيه ولا بأس أن نُصدِر عليه الحكم بعد ذلك بالقبول أو عدم القبول.

ولهذا ركَّزتُ في هذا الكتاب على الأخلاق والقيم التي لايختلف حولها الحكماء والعقلاء من المذاهب الإسلامية، والأديان السماوية، ودعاة حقوق الإنسان، ودعاة الإنسانية عبر الدهور والأزمان. وهي أخلاق الرُّجولةِ الحقة، التي يفتخر بها كل من تنسب إليه. وقد حاولتُ أن أُقْرِن فِيهِ الحَقَائقَ بالرَّقائق، وأمزج المعنى الفائق باللفظ الرائق، فهو زبدة التفكير والتذكير، وخلاصة المعرفة والخبرة، وصفوة العلم، ونقاوة العمل،

وما قصدته بلفظ الرجولة في هذا الكتاب هي مجموعة من القيم والأخلاق والمبادئ التي تهم الرجال والنساء على حدٍ سواء، فالرجولة هنا أشمل وأوسع من الذكورة كونها أخلاق كريمة وقيم نبيلة يحتاجها النساء والرجال، فكم امرأةً بَزَّتْ في الرجولةِ كثيراً من الرجالِ.

كما قال الشاعرحافظ إبراهيم رحمه الله:

الأمُّ مــــدرسةٌ إذا أعدَدْتهـــا أعـدَدْتَ شعباً طَيّبَ الأخـــلاق

وقد انتشر في بعض الجامعات في وطننا العربي وبخاصة الجامعات المختلطة بعض الأخلاق المنافية للقيم النبيلة والمروءة والشهامة ومكارم الأخلاق

والرجولة الحقة، بل وتغيرت بعض المفاهيم عند بعض الشباب نتيجة لذلك، وساد الغموض والتبس الأمر على كثير منهم، وأصبح الوضعُ بحاجةٍ إلى وِقْفَةٍ لجلاءِ هذه المفاهيم، وإزالة ما اعتراها من لُبْسٍ وغموض وانحراف. وحيث أن مفهوم الرُّجولة أصابه من الانحراف والتحريف وسوء الفهم ما أصاب كثيراً من مفاهيم القيم النبيلة والأخلاق الحميدة والعادات الفاضلة؛ أَردتُ مِنْ هذا العرض أن أَجلُوَ ما أصابه من رَيْن وأن أُعيدَ أذهان كثيرٍ من الشباب المعاصر إلى فهم المعاني الحقة للرجولة والمروءة والشهامة ومكارم الأخلاق.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويقبلنا على ما فينا، ويصلحنا ويصلح شبابنا وشاباتنا، ويتوب علينا و على جميع العصاة والمذنبين من أمة حبيبه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويردنا والمسلمين إليه رداً جميلا، وينفع به كُلَّ من قرأه أو اطلع عليه إنه نعم المولى ونعم النصير.

ابراهيم أحمد مسلم الطميسي الحارثي

ذو القعدة ١٤٣٦ هـ، آب ٢٠١٥ م

الفصل الأول

تمهيد

الفصل الأول

تمهيد

الحمد للّه والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب صاحب الخلق العظيم القائل: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"(١) والقائل: "إنما بعثت لآتمم مكارم الأخلاق"(٢) صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم. ضرب لنا المثل الأعلى في المروءة والشهامة والعفاف والترفع عن دنايا الأمور وسفاسفها، والارتقاء إلى قمم المكارم والأخلاق السامية الرفيعة، وسنام المجد والسؤدد، ومراقي الفلاح في الدنيا والآخرة.

وأشهد أن لا إله إلا اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءا أحد، فلا ند له ولا ضد، ولاشبيه ولا نظير، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير؛ وكلما خطر ببالك فاللّه غير ذلك. أكرمنا سبحانه وتعالى بأن جعلنا من أمة حبيبه محمد صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم، ودلنا على خُلُقة العظيم، وأمرنا باتباع سنته، وجعله لنا أسوة حسنة، وقدوة عملية واقعية في مكارم الأخلاق. فأقام علينا الحجة، وأوضح المحجة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. فلك الحمد يا ربنا كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولك الشكر على ما مننت به علينا من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وأعظمها نعمة الإسلام.

---

(١) رواه العسكري في الأمثال عن علي بن أبي طالب

(٢) رواه أحمد

اللهم كما مننت علينا بالإسلام وجعلتنا من أمة حبيبك محمد صلى الله عليه وسلم، فأكرمنا بمحبته واتباع سنته والتخلق بأخلاقه الكريمة، وأحينا على طريقته، في عافية وسلامة بلا محنة ولا امتحان، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرتة، وارزقنا شفاعته، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، واجعلنا عبيد إحسان وامتنان لا عبيد ابتلاء وامتحان. اللهم يا من وفقت أهل الخير للخير وأعنتهم عليه وفقنا للخير وأعنا عليه برحمتك يا أرحم الراحمين.

وإن مما حفزني إلى كتابة هذه الوريقات ما رأيته من انتشار الفتنة في عدد من أقطار المسلمين، بسبب التركيز على نقاط الإختلاف وتناسي نقاط الالتقاء التي تجمع بين المذاهب والطوائف المختلفة، فرأيت العودة إلى الأصول الجامعة التي تجمع شمل المجتمع وترد الأمة للتركيز على المقاصد النبيلة للدين مثل الرحمة والصدق والتسامح والتعاون والاحترام المتبادل والمروءة والشرف والشهامة والنصيحة وحب الخير لخلق الله، وهي مكارم الأخلاق التي هي من غايات الدين ومقاصده. فإن الرجوع للأصول يقلل خطر الاختلاف في الفروع. وإن الفشل في تربية المرء على مكارم الأخلاق يمكن إرجاعه إلى سبب أو أكثر من الأسباب الثلاثة التالية:

- المذهب أو الدين أو العقيدة أو الطائفة التي لا تهدف إلى مكارم الأخلاق ولا تحض عليها،
- الفرد نفسه الذي لم يلتزم بمكارم الأخلاق نتيجة لاتباعه هوى نفسه وانغماسه في الشهوات والملذات واختياره طريق الشر.

- المجتمع والنظم التربوية التي أهملت مكارم الأخلاق ولم تتخذ الطرق والأساليب التربوية الكفيلة بتنميتها والحفاظ عليها.

وحيث أن مكارم الأخلاق من الأهداف والمقاصد والغايات المعلنة للمذاهب والطوائف الإسلامية جميعها، على حد ما نعلم؛ فإن الرجوع إليها هو الأمل الذي ينشل الأمة من مستنقع الاقتتال الطائفي ويضعها في بر الأمان ويعيدها إلى رشدها، وإلى استخدام العقل والحكمة في حل مشكلاتها.

ومما دعاني أيضاً إلى كتابة هذه الوريقات ما رأيتُه من عزوف بعض الشباب في بعض الأقطار في عصرنا الحاضر عن منابع الفضيلة والأخلاق الكريمة، وابتعادهم عن صفات الرجولة الحقّة، ووَلِعهم في تقليد الساقطين والساقطات من أمم الغرب والشرق، ظانّين أن في هذا التقليد الأعمى سعادتَهم ونهضةَ أمتِهم. فأردتُ أن أضعَ وصيةً خاصة لأبنائي تبعدهم عن أهل الزيغ والفساد؛ وتَحُضّهم على التمسك بمكارم الأخلاق التي هي قلب الدين وأصله. وما دار في خلدي أن تكون كتاباً ينشر على الملأ. ولما شرعت في الكتابة اطلع عليها بعض الأبناء والأحفاد وبعض الأصحاب من الزملاء، وشجعوني على أن تكون الوصية مفتوحة لكافة الشباب؛ لأن الشباب في أمس الحاجة إلى مكارم الأخلاق، ولما رأيت حماسهم ورغبتهم، استخرت الله تعالى فانشرح صدري لذلك، وتطورت الفكرة إلى هذا الكتاب؛ الذي أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفع به أبنائي وبناتي، وشباب الأمة وشاباتها، وأن يتقبله في ميزان حسناتنا وأن يلهمَنا رشدنا ويقبلنا على ما فينا، ويتوبَ علينا وعلى العصاة والمذنبين من أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ومن المعروف أن الشباب في مرحلة المراهقة يقفون على أبواب الرجولة ويرغبون أن يتصرفوا كما يتصرف الرجال. وإن النظام الإعلامي العابر للقارات السائد في عدد من مجتمعاتنا العربية ممثلاً في أغلب القنوات الفضائية والوسائط الإعلامية الأخرى المتاحة على الشابكة (الانترنت) يعرض لهم نماذج للرجولة المنحرفة التي تخلوا أو تكاد أن تخلوا من الأخلاق الكريمة والقيم الإنسانية السامية، بقصد إغوائهم، وحرفهم عن طريق الرجولة الحقة، التي عاشها آباؤهم وأجدادهم، وكانت هي سبب عزتهم وكرامتهم؛ وبها نهضت الأمة وكانت نوراً يضيء الطريق لسائر الأمم. ونتيجة للإعلام الفاضح، والغزو الفكري الجامح؛ ابتعد كثيرٌ من شبابنا وشابّاتنا عن الأخلاق الحميدة الإنسانية السامية، واتجهوا إلى تقليد النماذج البشرية المشوهة فكرياً، التي يعرضُها ويُزَيِّنُها لهم شياطين الإنس والجن في الوسائط الإعلامية العالمية المتعددة، ووسائل الاتصال الجماهيرية، وقنوات الخنا الفضائية.

ومما زاد الطين بلةً وزاد في تفاقم البلاء ما نلحظه من تشبه بعض الفتيات من النساء بالرجال وتشبه بعض الشباب من الرجال بالنساء، وقد تفاقمت هذه الظاهرة في بعض الأقطار نتيجة لبرامج الميوعة والخلاعة في بعض القنوات الفضائية، والزخم الإعلامي المساند من جهة، وبسبب ضعف النظام التعليمي والنظام الإعلامي الرسمي في بعض بلادنا العربية من جهة أخرى.

وقد حذّر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من ظاهرة تشبه أحد الجنسين بالآخر أشد التحذير سواءً من ظاهرة تشبه النساء بالرجال أو تشبه الرجال بالنساء. فقد قال - صَلّى اللّٰه عَلَيْه وَسَلّم- في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما: (لَعَنَ الله الْمُتَشَبِّهِيْنَ مِن الرِّجَال بِالنِّسَاء، وَالْمُتَشَبِّهَات مِن النِّسَاء بِالرِّجَال)[٣]. وقال في حديثٍ آخر: (لَعَنَ اللهُ الرَّجُل يَلْبَس لبس المَرْأَة، وَالمَرْأَة تَلْبَس لُبْس الرَّجُل)[٤]. وقد رُوِيَ عَن أَبي أُمَامَة مَرْفُوعا: "أَرْبَعَة لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَأَمَّنَت المَلائكَة: رَجُل جَعَلَه اللّٰه ذَكَراً، فَأَنَّث نَفْسه، وَتُشَبّه بِالنّسَاء، وَامْرَأَة جَعَلَهَا اللّٰه أُنْثَى، فَتَذَكّرَت، وَتَشَبَّهَت بِالرِّجَال، وَالّذِي يُضِلُّ الأَعْمَى، وَرَجُل حَصُوْر، وَلم يَجْعَل اللّٰه حَصُوْرَا إِلّا يَحْيَى ابْن زَكَرِيّا."[٥] وقد رُوِيَ أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثةٌ لا يدخلون الجنّةَ أبدًا، الدّيوثُ، والرّجُلةُ من النّساءِ، ومدمنُ الخمرِ، قالوا: يا رسولَ اللّٰهِ، أمّا مدمنُ الخمرِ فقد عرفناه، فما الدّيوثُ؟ قال: "الّذي لا يُبالي من دخل على أهلِه"، فقلنا : فما الرّجُلةُ من النِّساءِ؟ قال: "الّتي تتشبّهُ بالرِّجالِ."[٦]

---

(٣) رواه البخاري

(٤) رواه الإمام أحمد وأبوداود

(٥) رواه الطبراني

(٦) أخرجه النسائي وأحمد والطبراني والبيهقي مع بعض الفروقات

إن المتأمل في معاني هذه الأحاديث الشريفة يشعر بمدى اهتمامه صلى الله عليه وسلم بموضوع تشبه أحد الجنسين بالجنس الآخر؛ مما يدل على أن هذه القضية لها تأثيرات تربوية خطيرة؛ تنذر بشرور اجتماعية كثيرة؛ تفضي إلى فساد المجتمع الإنساني، وانحطاطه إلى ما دون المستوى الحيواني. وإن ما نشاهده اليوم من انتقال هذه المرض من الحضارة الغربية إلى بلادنا وتفشي هذه الظاهرة في بعض المجتمعات العربية والإسلامية؛ ما هو إلا حصاد عدة عقود من التيه الفكري التربوي والتعليمي الذي عَمَّ نُظُمَنا الاجتماعية والتعليمية والإعلامية في العقود التي تلت سقوط العالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة في أيدي أعداء الأمة.

فأردت – والحالة هذه – أن أعرض نماذج وأقوال مما ورد في معاني الرجولة الحقة، وصفاتها التي يفتخر بها الرجال الشرفاء، ويهيم بها العقلاء والحكماء من جميع الأمم في جميع العصور؛ فهي قيم إنسانية عابرة للثقافات والأديان والعادات والتقاليد الإنسانية الرفيعة، وهي في الوقت نفسه من مكارم الأخلاق التي جاء بها سيد الأنبياء والمرسلين، رأيتُها وعايشتها في حياة عدد محدود ممن أنعم الله عليَّ بمعرفتهم وصحبتهم من الآباء والأجداد ومن الرجال الشرفاء الذين يقتدى بهم، واستخرجتُ شواهدها من بطون الكتب مما كتبه علماء الأمة وحكماؤها وشعراؤها، وأدباؤها، ومن أهم الكتب التي رجعت إليها واعتمدت عليها في ذلك: كتاب "أدب الدنيا والدين" لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي رحمه الله، وكتاب "إحياء علوم

الدين" للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله، و"ديوان الإمام الشافعي" لمحمد بن ادريس الشافعي رحمه الله، وكتاب "المجموع" للجبيب عبدالله بن حسين بن طاهر با علوي رحمه الله، وديوان الإمام الحداد المسمى "الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم" للإمام العارف بالله الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد الباعلوي الحسيني المتوفى عام ١١٣٢هـ بتريم حضرموت. وغيرها من منثور الحكم التي اكتسبناها من صحبة أكابر الرجال في فترة حياتنا الواقعية القصيرة، جمعتُها ونسقتُها وألَّفتُ بين أشتاتها، وخرَّجتُ الأحاديث الشريفة ما استطعت، وسعيت إلى تفسير بعض ما غمض من المعاني و الألفاظ، وقد أضفت بعض الوقائع، التي شاهدتها وعلمتها في عصرنا الحاضر، التي تدل على أن المروءة والشهامة والفتوة والأخلاق الكريمة لم تمت في مجتمعنا الحالي رغم كل الظروف القاسية التي تعيشها الأمة، نعم قد تكون تقلصت وانزوت إلى حين، ولكنها موجودة وستبقى كذلك؛ ولئن علا عليها صراخ الدَّجل والدَّجالين والمنحرفين والساقطين في فترة من غفلة الزمن. فستعود لتعلو على جميع القيم الهزيلة الساقطة وتسيطر عليها وتطمسها. لأنها الوسيلة الوحيدة لإصلاح المجتمع، وهي مظهر من مظاهر رحمة الله سبحانه، وهي مقصد من أهم مقاصد رسالة الإسلام التي بعث الله بها حبيبنا رسول الله وبلغها للأمة رحمة للعالمين.

لقد عاش آباؤنا وأجدادنا متخَلِّقين بالأخلاق السامية وملتزمين بها في حياتهم بصفة عامة، بل إن الأمة كلها عاشت هذه الأخلاق الكريمة حياة

واقعية في مجتمعاتها المحلية لما يقرب من ألف وأربعمائة سنة. وقد حاول أعداء الأمة المندسون منهم والظاهرون، المستشرقون منهم والمستغربون؛ أن يشوهوا تاريخنا باجتزاء بعض الأحداث المعزولة والوقائع الشاذة، وتعميمها على المجتمع كله، وعلى التاريخ كله، وعرضها على أنها حال الأمة؛ ليحرفوا أبناءنا عن مكارم الأخلاق، ويسوقوهم إلى الأمور الدنيئة المنحطة السافلة، إلى أوكار الرذيلة ليشعروهم بحقارتهم وحقارة تاريخهم وثقافتهم، ويقصد أعداء الأمة من ذلك توليد قناعة داخلية لدى شبابنا وشاباتنا بأنهم من أمة متخلفة ولا يصلح لها إلا أن تكون تابعة للأمم الغربية؛ في محاولة لئيمة لصرفهم عن التفكير في معالي الأمور وعدم التطلع إلى معاقد العز والكرامة. وهكذا يقطعون عليهم الأمل في نهضة المجتمع وعزته وكرامته، ويصرفوهم عن التفكير في معالى الأمور ومكارم الأخلاق والفضائل التي تؤدي إلى نهضة أمتهم.

إن المجتمع المعاصر بما دخله من مفاسد الحضارة الغربية، وما اجتاحه من موجات الغزو الفكري والغزو العسكري، وبما حصل له من الانهزام الروحي واحتقار الذات، وبما نتج عنه من التقليد الأعمى لحياة الشعوب الأوروبية والأمريكية؛ قَتَلَ معاني المروءة والشهامة والكرامة في نفوس عدد من الشباب والفتيات. وإن أجهزة الإعلام العالمي الظالم المنهج بقنواته الفضائية ووسائل الاتصال المتنوعة من أهم الوسائل التي ساهمت في قَتْلِ المروءة والشهامة واستلال الغيرة والحمية والنجدة والعفة والنخوة من نفوس الشباب وغيرها

من شيم الرجولة الحقة؛ بإعلانها الفاحشة عبر وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية. هذا الإعلام الذي حول الرذائل إلى فضائل، ورتب لها المسابقات المحلية والإقليمية والدولية، ورصد لها الجوائز المالية والمعنوية. إن الوسائط الإعلامية المختلفة من صحف ومجلات ومحطات تلفزيونية وقنوات فضائية وما تحويه شبكة المعلومات الدولية (الشابكة) من الفضائح والمخازي؛ قتلت الحياء في نفوس كثير من الشباب والفتيات، وشجعت على سوء الأخلاق، وقتلت الغيرة والفضيلة والحمية في نفوس كثير من الشباب. إن ارتياد هذه المواقع الدنيئة ومشاهدة قنوات الخنا الفضائية وارتياد المواقع المشبوهة في وسائط الاتصال الجماهيري على شبكة الانترنت (الشابكة) يشكل خطراً كبيرا على أخلاق الشباب وسلوكاتهم. ولذلك نرى كثيراً من الشباب في أجيال الأمة المعاصرة قد فقدوا كثيراً من معاني المروءة والشهامة والأخلاق الكريمة، وتساقطوا إلى سفاسف الأمور في ظل الهجمة الثقافية والإعلام الهابط الذي يدعو إلى إعلاء شهوتي البطن والفرج ويشجع التبرج والاختلاط والإعلان الفاضح.

وقد ساهم النظام التعليمي في بعض دولنا العربية التي تحتوي على مدارس وجامعات مختلطة في إضعاف معرفة الأجيال الصاعدة في ثقافتهم ولغتهم العربية وعزل الشباب عن معين الفضائل ومكارم الأخلاق وكنوز الثقافة الأصيلة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بالتمكن من معرفة العربية.

فاللغة العربية هي بوابة الوصول إلى الفضائل، ولا يمكن اكتساب الفضائل والأخلاق الكريمة إلا بها؛ لأنها معين الإسلام فلا يمكن تذوق الإعجاز القرآني وفهم معانيه ومعرفة السيرة النبوية والأحاديث الشريفة إلا باللغة العربية. فلغتنا لغة الفضائل وثقافتنا الأصيلة ثقامة مكارم الأخلاق، وإذا فقدنا لغتنا فقدنا ثقافتنا وهويتنا وإذا فقدنا هويتنا فقدنا أنفسنا، وأصبحنا هملاً لا قيمة لنا، بل قد يتحول بعض شبابنا وشاباتنا إلى بضاعة رخيصة معروضة في سوق النخاسة الدولية المعاصرة.

ولكـن أعداء الفضيلة والكرامة الإنسانية وجنود إبليس وعبدة الشيطان لم يكتفوا بـكل وسائط الإعلام الفاضـح؛ بل وقفوا على طريـق الشباب الشرفاء الذيـن رفضوا أفكارهـم المنحرفة، وتحرروا من خداعهـم وأغلالهم، واتجهوا إلى الله فاريـن من الكفر والرذائل؛ فصـوروا لهم الدين على شكل ممارسات جافة، وطقوس خالية من الروح والرحمة والإنسانية؛ فهيئوا لهم صورة مغلوطة لديـن الإسـلام تركز على القتـل والذبح والإرهاب الذي يقتـل الأبرياء ويفجر المباني والمساجد ودور العبادة على سكانها الآمنين المسالمين،بطريقة تخلوا من معاني الرحمة والإنسانية.في محاولة منهم لتشويه دين الإسلام؛ لإبعادهم عن مكارم الأخلاق التي هي لب الدين وغايته ولحمته وسداه. مصداقا لقوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"(٧)

---

(٧) رواه أحمد

وقد روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما، أنه قال: لما بلغ أبا ذر رضي اللّه عنه مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم - قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قوله صلى اللّه عليه وسلم، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق(٨). وفي حديث مرسل "جاء رجل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه ما الدين؟ قال : حسن الخُلُق، ثم أتاه من قِبَل يمينه فقال: ما الدين؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من قِبَلِ شماله، فقال: ما الدين؟ قال حسن الخُلُق، ثم أتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه، وقال: أما تفقه، هو أن لا تغضب".

هذا هو ديننا: حسن الخلق ومكارم الأخلاق. رحم اللّه شاعر وادي النيل حافظ إبراهيم القائل:

إنَّما الأمم الأخلاقُ ما بَقِيَت ... فإن همُ ذَهَبَتْ أخلاقُهُم ذَهَبوا

ولذلك أردنا أن نذكِّر أجيالنا بأخلاقنا السامية وثقافتنا الإنسانية الرفيعة، وبالأخلاق الكريمة النبيلة السامية التي كان عليها آباؤهم وأجدادهم، عسى أن يساعدهم ذلك في العودة إلى منابع المكارم والفضائل، وإلى معاقِدِ العِزِّ والسُّؤدَدِ والشرف الرفيع في ثقافتنا وتراثنا الأصيل. لقد سُدنا في الماضي على العالم بمكارم الأخلاق التي جاء سيدنا محمد صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم لإتمامها؛ ولما فقدناها لم نفقد سيادتنا على العالم فحسب بل فقدنا

(٨) رواه البخاري

سيادتنا على أنفسنا، وليس لنا نجاة إلا بالعودة إلى أخلاقنا الكريمة لنسترد مروءتنا وشهامتنا وإرادتنا وعزتنا وكرامتنا السليبة. فإذا عُدنا إلى مكارم الأخلاق عُدنا في الواقع إلى ديننا.

وقد جاء في وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: خذ الناس بالعربية، فإنَّه يزيدُ في العقلِ، ويَثَبِّتُ المُروءَة.

أي أن أخذ الناس بالعربية أي تعليمهم اللغة العربية الفصيحة ينمي عقولهم ويثبت المروءة ومكارم الأخلاق في نفوسهم. لأنه لا يمكن فهم القرآن والسنة النبوية الشريفة إلا باللغة العربية.

إن العودة إلى منابع ثقافتنا ودراسة الأدب العربي السامي الأصيل بما فيه من حكم ثمينة، واخلاق رزينة، وفضائل ومكارم؛ مبثوثة في الشعر والنثر والقصص والوقائع والحكايات والأمثال له أثر كبير في مقاومة الروح الانهزامية، والشعور بالإحباط الذي بدأ ينتشر في ثقافة الجيل المعاصر لدرجة قال قائلهم:

مـررت على المُـروءة وهـي تبكـي ... فقلـت عـــلام تنتحـب الفتـــاةُ

فقـــالـت كيـــف لا أبـكـي وأهلـي ... جميعـــا دون خلـــق الله ماتـــوا

ورغم ذلك فان الخير في هذه الأمة باقٍ، وإن أهل المروءة لم يموتون كلهم، بل إن كثيراً منهم على قيد الحياة فلنبحث عنهم ولنصحبهم ونتخذهم لنا قدوة وأسوة حسنة. ولابد يوما أن تعود الأمة إلى أخلاقها.

إن جميع الأديان حثت على القيم الأخلاقية النبيلة وبخاصة دين الإسلام الذي جاء ليكمل مكارم الأخلاق. ولو درسنا تاريخنا المجيد من منابعه الأصيلة، وليس من تلك التي اختارها لنا أعداء الأمة من المستشرقين والعملاء المخفيين المدسوسين؛ أقول لو درسناها دراسة موضوعية نزيهة لوجدنا نماذج من القمم الإنسانية الشامخة التي تطمح إليها البشرية وتفتخر بها الأمم.

إن تتبعنا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان، سيمدنا بمواقف من الشهامة والمروءة والرجولة يفخر بها كل مسلم وكل عربي.

هذا وقد ورد بعض التكرار في عدد من الاستشهادات ببعض الأحاديث والأشعار والأقوال في أكثر من موضع. وذلك مراعاة لوحدة الموضوع وتسهيلاً للقارئ.

وقد أضفت نشاطاً في نهاية بعض الموضوعات على شكل أسئلة يقوم القارئ بالإجابة عنها عملياً. والهدف من هذا النشاط هو مساعدة القارئ على التفكُّر والتأمل الذاتي ليعود الإنسان إلى نفسه ويحاسبها ويتفحص اهتماماته وممارساته ويعيد ترتيب أولوياته ويقوم بإعادة تكوين شخصيته وتشكيلها من جديد إنطلاقاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٩] ولذلك لا بد من العودة إلى النفس واستكمال فضائلها؛ إذا أراد المرء أن يتحلى بأخلاق الرجولة التي هي مكارم الأخلاق وهي أساس الدين وهي للنساء كما هي للرجال بصفة عامة إلا في بعض ما يختص بالرجال من حيث تكوينهم البيولوجي وبعض الوظائف الاجتماعية التي اختصهم الله بها.

---

(٩) الرعد – ١١

نعم إن التحلي بالفضائل يحتاج إلى مجاهدة النفس لإجبارها على التخلي عن الرذائل وترك الأخلاق الذميمة والابتعاد عن رفقاء السوء والبحث عن أهل الفضائل ومجالستهم وصحبتهم فإن المجالسة مجانسة، وإن الصاحب ساحب، وقد أطلق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم الجهاد الأكبر على جهاد النفس. فعند عودته من إحدى الغزوات قال عليه الصلاة والسلام: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر."[١٠] ولا نقصد من هذا التقليل من شأن أنواع الجهاد الأخرى؛ فكل منها له قيمته، وميدانه، ووقته، وأهميته، ولا تعارض بينها جميعا. إنها دعوة لمكارم الأخلاق وللفضيلة، ولترك الأخلاق الذميمة والابتعاد عن الرذيلة ودنايا الأمور.

وأرجو الله العظيم العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب شباب الأمة وفتياتها، ويعيدهم إلى النهل من المنابع الصافية لثقافة الأمة العربية الإسلامية ويرزقهم التخلق بالأخلاق الكريمة، والاقتداء في ذلك بمن جعله الله تعالى أسوةً حسنةً وقدوةً مُثلى للأمة، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم سيد الأنبياء والمرسلين، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا الجهد بمنِّه وكرمه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يقبله في ميزان حسناتنا، وأن يقبلنا على ما فينا ويغفر لنا ويرحمنا، وأن ينفع كل من قرأه أو طبعه أو أعان على نشره وتعليمه لأبناء الأمة في كل زمان ومكان. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١٠) رواه البيهقي والنسائي والخطيب البغدادي

الفصل الثاني

المروءة عنوان الرجولة

الفصل الثاني

المروءة عنوان الرجولة

معنى المروءة اللغوي:

ذكر ابن منظور في "لسان العرب" أن المروءة مشتقة من الأصل الثلاثي لها وهو كلمة "مَرُؤَ" فيقال: مَرُؤَ الرجلُ يَمْرُؤُ مُرُوءَةً فَهُوَ مَرِيء على وزن فعيل. وتَمَرَّأَ على وزن تَفَعَّل صار ذا مُرُوءَة. أو تَكَلَّف المُروءة. والمُروءَة: الإنسانية. ومَرُؤَ الطعامُ يَمْرُؤ مَراءَةً صار مريئاً أي هنيئاً حميدُ المغَبَّةِ بَيِّنُ المَراءَةِ. وفي حديث الاستسقاء: اسقنا غيثاً مَريئاً مريعاً.[11] أي هنيئا مفيداً ينبت الكلأ ويخصب الأرض ليس فيه ضررٌ على العبادِ والبلادِ حميد العاقبة.

وفي المعجم الوسيط: المروءة آداب نفسانية تَحمِلُ مراعاتُها الإنسانَ على الوقوفِ عندَ محاسنِ الأخلاقِ وجميلِ العادات، أو هي كمالُ الرجولية.[12]

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى رضي الله عنه : خذ الناس بالعربية، فإنَّه يزيدُ في العقلِ، ويَثْبِّتُ المُروءَة، أي أن تعلم اللغة العربية الفصيحة ينمي عقول الناس ويكسبهم مكارم الأخلاق والفضائل ويثبت المُروءَة في نفوسهم.

---

(١١) لسان العرب، المجلد الثامن، ص٢٣٩-٢٤٠، طبعة دار الحديث، القاهرة،١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

(١٢) المعجم الوسيط، ص٨٦٠، ج١، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا

وقيلَ **للأحنف بن قيس**: ما المُروءَة؟ قال: العفَّةُ، والحِرفةُ؛ أي أن يعفَّ المرءُ ويترفعَ عن الأخلاق السيئة وسفاسف الأمور، وان يكون له في الوقت نفسه حرفة أو مهنة يعمل بها ويكسب قوته وقوت أهله، ويستغني بها عن الناس.

وسُئِلَ آخر عن المُروءَة: فقال: المُروءَةُ أن لا تفعلَ في السِّرِّ أمراً وأنتَ تستحي أن تفعلَه جهراً.(١٣)

المعنى الاصطلاحي للمُروءة:

رُوِيَ أن جبريـل عليه السلام قـال: يا محمد إني أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيـا والآخرة، في قولـه تعـالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١٤) وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسال العـالم، ثـم عاد جبريل وقال: "يا محمد إن ربَّك يأمـرُك أن تَصِلَ مَنْ قطعك، وتُعطـي مَنْ حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك". فقد جمعت هذه الآية الكريمة مكارم الأخلاق كلها.

قيل لسفيان بن عيينة، قد استنبطت من القرآن كل شيء فأين المُروءة في القرآن ؟ قال: في قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ جمعت هذه الآية الكريمة بين المُروءة وحُسن الآداب ومكارمِ الأخلاقِ. ففي قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾صلةٌ من قطعك من الأرحام، والعفو عن المذنبين، والرفق بالناس، والمسامحة، وغض الطرف عن الزلات.

---

(١٣) لسان العرب، المجلد الثامن، ص٢٣٩-٢٤٠، طبعة دار الحديث، القاهرة،١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

(١٤) الأعراف - ١٩٩

وفي قوله تعالى ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ صلةُ الأرحامِ، وتقوى الله في الحلالِ والحرام، وعمل كل ما فيه خير ونفع للناس، واجتناب كل ما يشين ويقبح وينبو عن الذوق السليم ومكارم الأخلاق.

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الحضُّ على التخلق بالحلم، وكظم الغيظ، والترفع عن دنايا الأمور، وعن مجاراة الجهلة وسيئي الأخلاق، والتنزه عن منازعة السفهاء، والالتزام بالأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

فقد جمعت هذه الآية خير الدنيا والآخرة حقا.

المُروءة عند العرب:

المروءة خلق أصيل عند العرب في الجاهلية وفي الإسلام. وكما رأينا في المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي للمُروءة؛ بأنها تضمُّ مجموعةً من مكارمِ الأخلاق، وهي خلق إنسانيٌّ رفيع، بل إنها تتربع على قمة الأخلاق الإنسانية الرفيعة؛ بحيث أن الإنسان يفتخر إذا وصف بأنه ذا مُروءة. وكانت العرب تتصف بالمُروءة والشهامة في الجاهلية، وكانت هذه ميزة للعرب يمتازون بها عن سائر الشعوب.

لدرجة أن أبا سفيان بن حرب الذي عادا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وحاربَهُ في معركةِ بدر، وفقد فيها سبعين من أقاربه وأنصاره، لم يستطع أن يكذب عندما سأله هرقل عظيم الروم عن محمد صلى الله عليه وسلم خوفاً من أن تقولَ العربُ كذبَ أبوسفيان؛ لأنه يعلم أن الكذب يجعله فاقداً للمُروءة.

ولعـل ما كان العـرب يتمتعون به من مكارم الأخـلاق التي ورثوها عن دين اسماعيـل وابراهيم هـي التي أهلتهم لتحمـل شرف رسالة الإسـلام وتبليغها للعالمـين، وأهلتهـم أن يكـون منهـم أصحابِ سيـد الأنبيياء والمرسلـين سيدنا محمـد صلـى الله عليـه وآله وصحبـه وسلم. وعندمـا جاء الإسـلام أكد على مكارم الأخـلاق بصفة عامة وهذبها ووضع لهـا الضوابط والحدود. وقد رُوي في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[١٥]

فالمُروءة إذن هي العمل بمحاسن الأخلاق ومكارم العادات، وإغاثة الملهوف، والرأفة بالضعيف، والرحمة بالمساكين، والعطف على الصغار، والتوقير للكبار، وهي صدق في القول والفعل، وجبر لعثرات الكرام، واحتمال لزلات الأصدقاء، وبذل للمعروف، وكف للأذى، وإكرام للضيف، وطلاقة في الوجه، وصيانة للنفس عن سفاسف الأمور، وعلو في الهمة، وتطلع الى معالي الأمور، وتنزه عن دنايا الأمور.

المُروءةُ ميزانُ الرجالِ، وكان العربُ يقيسون الرجالَ بميزانِ المُروءةِ. وكان أهل الحديث لا يأخذون الحديث إلا ممن كَمُلت مُروءَتُه، ولا يأخذون الحديث عن ناقصي المُروءة.

فالمروءة هي التعامل مع المرء تعاملاً إنسانياً وفق محاسن الأخلاق وكريم العادات كما جاء في المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي المذكورين سالفا.

---

(١٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى

تعدد معاني المروءة وتنوعها:

إنَّ معنى المُروءةِ أكبرُ وأكثرُ من أن يُحصى أو يُحد؛ لأن من معانيها ما يعرف بالعقل والعادة، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال، ومنها ما يظهر بالفعل المشاهد، ومنها مايخفى بالتغافل والتغاضي عن الزلات والهفوات، ومنها ما يعرف بالشرع الحكيم والعقل السليم. ومنها ما يعرف بالإحساس والمشاعر الإنسانية. وكل ما نستطيع تقديمه في هذه العجالة تعريفات جزئية ذكرها العلماء والحكماء كل حسب معرفته وخبرته في حياته الاجتماعية ومفهوماته وإدراكاته لمجريات الوقائع والأحداث؛ فكل منهم تناول جانبا من جوانب المروءة؛ وقد يكون الجانب الذي يتميز به، أو الجانب الذي يراه أكثر أهمية من غيره. وتشكل معانيها المتعددة في مجملها المعنى الشامل المتكامل للمروءة.

ولذلك قال بعضهم: المُروءَةُ مراعاة الأحوال إلى أن تكون النفوس على أفضل حال، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذمٌّ باستحقاق.(١٦)

وقال آخر: المُروءَةُ حلية النفوس وزينة الهمم، وهي ما يظهر من شواهد الفضل ودلائل الكرم.

وروى أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ عن علي بن موسى الرضا عن أبيه وأجداده عن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "مَن عامَلَ النَّاسَ فَلَم

---

(١٦) أدب الدنيا والدين للماوردي

يَظلمهم، وحدَّثَهم فَلم يَكذبهم، ووعدَهم فَلم يُخلِفهم، فهو ممَّن كَمُلَت مُروءَتُه وظَهرت عَدالتُه، ووجَبت أُخُوَّتُه، وحَرُمت غيبَتُه."(١٧)

لقد جمع هذا الحديث مكارم الأخلاق في التعامل مع جميع الناس على اختلاف ألوانهم وأديانهم؛ ففيه العدل مع جميع الناس، والابتعاد عن الظلم بجميع مستوياته مع خَلْقِ الله جميعهم، وفيه الصدق والابتعاد عن الكذب بجميع أنواعه، وفيه عدم خلف الوعد، وفيها الوفاء بالعهد. وهي قيم وأخلاق حض عليها الإسلام.

فَمَن توفرت فيه هذه الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة فقد كَمُلَت مُروءتُه وأصبح معروفا بالعدالة والنزاهة، وأصبح أهلاً للأخوة والصداقة والصحبة، بل أصبحت صحبته واجبة لمن أراد أن يتعلمَ مكارم الأخلاق، ورغم أن الغيبة حرام بصفة عامة، لكن غيبة الفضلاء والعلماء لها مزيد حرمة، وقد قيل لحوم العلماء مسمومة. بمعنى أن من أكل لحوم العلماء بالغيبة فقد تسمم قلبه والعياذ بالله، ومات قلبه إلّا أن يتوب إلى الله ويستغفره.

وقال بعض الحكماء: المُروءَةُ علوُّ الهمَّة، ومعرفةُ النَّفس، وكتمانُ السرِّ، والرَّغبةُ في الفضائِل.

وقال آخر: المُروءَةُ العفَّة عن المحارم والمآثم، وضبط الفرجِ عن الحرام، وكفُّ اللسان عن الأعراض.

---

(١٧) أخرجه الخطيب البغدادي في الكفاية

وسئل ميمون بن مهران عن المروءة قال: "المروءة: طلاقة الوجه، والتَّودُّد إلى النَّاس، وقضاء الحوائج."

وسئل عمرو بن العاص عن المُروءَةِ فقال: تقوى الله تعالى، وصلة الأرحام.

وسئل المغيرة بن شعبة عن المُروءَةِ فقال: العفَّة عما حرَّم الله تعالى، والحِرفةُ فيما أحلَّ الله تعالى.

وسأل معاوية ابنه يزيد عن المُروءَةِ فقال: الصبرُ على البلوى، والشكرُ على النُّعمى، والعفو عند المقدرة. فقال معاوية: أنت منِّي حقاً.

وسُئِل أحد الحكماء عن المُروءَةِ، فقال: هي حب المكارم، واجتناب المحارم.

وقال بعض الحكماء: المُروءَةُ الترفُّعُ عن المطامِع الدَّنيئةِ، والابتعاد عن مواقف الريبة، وأداء الأمانة، وعدم الإسرار بالخيانة.

وقال الحكماء: المُروءَةُ العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة.

وقال حكماء العرب: للمروءة أربعة أركان: حسنُ الخلق، والسخاءُ، والتواضعُ، والشكر.

وتقول العرب: الحلم وصيانة النفس من كمال المُروءة.

وقالت العرب: الشفاعات زكاة المروءات،

وقالت العرب: المُروءات في جهد. أي لا تُنال المروءات إلا بالتعب والكد، وبذل الجهد والتضحية.

وقالت العرب: إن للعقل حد ينتهي إليه، كما أن للبصر حد ينتهي إليه.

وقالت العرب: الحرية الصحيحة في القناعة، والذل كل الذل في الطلب والسؤال.

وقال عمرو بن معدي كرب:

ليسَ الجمــــالُ بِمِئْـــــزَرٍ فــاعلمْ وإنْ رُدِّيــتَ بُــرْدَا
إنَّ الجَمـــالَ معـــادِنٌ ومنـــاقِبٌ أورَثْـــنَ مجْـدَا

تعطينا هذه الأقوال في المروءة مدى واسعاً متعدداً من فهم معنى المُروءة يتسع لجميع هذه الأقوال والتعريفات ويشمل ما وراءها من خبرات وممارسات ومعاني متنوعة تتشكل وتتلون حسب اختلاف البيئات والأزمان والمجتمعات.

أزمة الشباب الأخلاقية في المجتمع المعاصر:

إن المجتمع المعاصر بما دخله من مفاسد الحضارة الغربية قتل كثيراً من معاني المروءة والشهامة في نفوس كثير من الشباب والفتيات بإعلانه الفاحشة عبر وسائل الإعلام البصرية والمسموعة والمقروءة. إن وسائل الميديا من صحف ومجلات ومحطات تلفزيونية وقنوات فضائية وما تحويه شبكة المعلومات الدولية (الشابكة أو الانترنت) من الفضائح والمخازي؛ استلت الحياء من نفوس الشباب والفتيات، وشجعت على سوء الأخلاق، وطمست الغيرة والفضيلة والحمية في نفوس كثير من الشباب الذين يرتادون هذه المواقع الدنيئة ويشاهدون قنوات الخنا الفضائية ويقرأون المجلات الهابطة. وقد جرى كل ذلك تحت شعار الفن

والإبداع والحرية وتنمية المواهب والهوايات، بيد أن الفن والإبداع والتحرر براء من ادعاءاتهم وتلفيقاتهم كلها.

ولذلك نرى كثيراً من الشباب والشابات قد وقعوا في الشباك التي نصبها أعداء الإسلام لاصطيادهم، وفقدوا كثيراً من معاني المروءة والشهامة والأخلاق الكريمة. كما نجد أن كثيراً من الأخلاق السيئة قد تسربت إليهم، وتشربوها عن طريق اللاوعي مثل الضعف العام في اللغة العربية، وعدم الجدية، والشخصية الهلامية(١٨)، والميوعة الأخلاقية، وفقدان الحمية والغيرة والنجدة، والشجاعة، والجرأة الأدبية، وغيرها.

إن ضعف معرفتهم بالعربية في ظل نظام تعليمي هزيل يُعلي من قيمة اللغة الأجنبية والثقافة الأجنبية، ويَحُطُّ من قيمة اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية؛ الأمر الذي أدى إلى عزلهم عن معين الفضائل ومكارم الأخلاق وكنوز الثقافة الأصيلة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بالتمكن من معرفة العربية. فاللغة العربية هي بوابة الوصول إلى الفضائل، ولا يمكن اكتساب الفضائل والأخلاق الكريمة إلا بها، فلغتنا لغة الفضائل وثقافتنا الأصيلة ثقافة مكارم الأخلاق.

ومن المعروف لدى علماء اللسانيات، وعلماء الاجتماع في العالم أن اللغة الأم لأي شعب تمثل ثقافته وهويته ووجوده، وإن إهمال اللغة الأم لأي شعب

---

(١٨) الشخصية الهلامية: التي ليس لها قوام فكري ثابت، وتغير مبادئها وقيمها حسب المنفعة الآنية والمصالح المادية.

هو في الحقيقة إهمال لوجود ذلك الشعب، فضلاً عن إهمال ثقافته وهويته الوطنية.

وإن هذا الكتاب وأمثاله، وما نقوم به من نشاطات يقع في سياق تذكير الأمة بأخلاقها السامية وثقافتها الإنسانية الرفيعة التي عاشت عليها خلال القرون الماضية، وتذكير شبابنا وشاباتنا بثقافتهم وهويتهم الثقافية ليستيقظوا من سبات التقليد الأعمى لأعداء الأمة، إلى وعي الإحساس بوجودهم الثقافي المتميز الذي تضرب جذوره في أعماق التاريخ، عسى أن يساعد ذلك في عودة أجيال الأمة الصاعدة إلى منابع المكارم والفضائل، وإلى معاقد العز والسؤدد والشرف الرفيع في ثقافتنا وتراثنا الأصيل. لكي يشعروا أنه لا يليق بهم وهم أحفاد أولئك العظماء، أن يكونوا تبعاً لشخصيات ناقصة من ساقطي الغرب والشرق، هذه الشخصيات المشوهة التي صنع منها الإعلام الغادر المُسَيَّس أبطالاً على الشاشات الوهمية لإغواء الأطفال والمراهقين والسذج من أبناء المسلمين.

إن العودة إلى دراسة الأدب العربي الأصيل بما فيه من حكم ثمينة، واخلاق رزينة، وفضائل ومكارم؛ مبثوثة في الشعر والنثر والقصص والخطابات والرسائل والوقائع والحكايات والأمثال، والتاريخ، وكذلك العودة إلى دراسة سير العلماء والعظماء والأبطال والقادة والفاتحين في تاريخنا المجيد؛ له أثر كبير في مقاومة الروح الانهزامية، والشعور بالإحباط الذي بدأ ينتشر في ثقافة الجيل المعاصر.

ورغم ذلك فإن الخير في هذه الأمة باقٍ، ولابد يوما أن تعود الأمة إلى أخلاقها السامية التي أجمعت عليها جميع الأنبياء في الأديان السابقة وحض عليها دين الإسلام الذي جاء ليكمل مكارم الأخلاق. ولو درسنا تاريخنا المجيد وتتبعنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان، لشاهدنا مواقف من الشهامة والمروءة والرجولة يفخر بها كل مسلم وكل عربي.

وفي الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفا سفها".[١٩]

ومن أقوال إمام التابعين الحسن البصري رضي الله عنه: "من مروءة الرجل أربعة: صدق اللسان، واحتمال عثرات الإخوان، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكف الأذى عن أباعده وجيرانه.

قال أبو الحسن علي بن محمد الماوردي: المروءة حلية النفوس وزينة الهمم وهي مراعاة أحوال النفس إلى أن تكون على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه إليها ذم باستحقاقه.[٢٠]

وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة: أن يتعفف عن الحرام، ويبتعد عن الآثام، وينصف في الحكم، ويكفَّ عن الظلم، ولا يطمعُ فيما لا يستحق، ولا يستطيل على من لا يستحق، ولا يعينُ قوياً على ضعيف، ولا يؤثرُ دنياً على شريف، ولا يُسِرُّ ما يعقبه الوزر والإثم، ولا يفعلُ ما يُقَبّحِ الذكر والاسم.

---

(١٩) رواه الطبراني في المعجم الكبير

(٢٠) أدب الدنيا والدين،ص٤٤٦

وقال حكيم العرب ربيعة الرأي: المروءةُ ست خصال: ثلاث في الحضر: وثلاث في السفر، فأما التي في الحضر: فتلاوة القرآن وعمارة مساجد الله، واتخاذ الإخوان في الله، وأما التي في السفر فبذل الزاد، وقلة الخلاف لأصحابه، والمزاح في غير معاصي الله.

وروي عن قيس بن ساعده أنه كان يقدم على قيصر الروم فيكرمه، فقال له قيصر ما أفضل العقل عندكم ؟

قال قيس: معرفة المرء نفسه.

قال قيصر: ما أفضل العلم؟

قال: وقوف المرء عند جهله.

قال: فما أفضل المروءة؟

قال: استبقاء المرء ماء وجهه، المروءة باب مفتوح، وطعام مبذول، وإزار مشدود، وقيام في حوائج الأهل والناس، فإن من احتاج أهله الى الناس وهو قادر على مساعدتهم فلا مُروءَة عندَه.

يدل هذا الكلام لقيس بن ساعدة وهو من حكماء العرب في عصر الجاهلية على فهم عميق للنفس البشرية وعلى الأخلاق السامية التي كانت عند الحكماء من العرب في ذلك العصر، التي جعلت قيصر الروم رئيس الدولة العظمى في العالم في ذلك الوقت يستمع إلى رجل من بادية العرب ليستجلب منه الحكمة ويتعرف على الأخلاق الرفيعة، ولا عجب في ذلك فهي من القيم

السامية والأخلاق الكريمة التي توارثها الحكماء من العرب عن دين اسماعيل بن ابراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وقال أحد الصالحين: جالسوا أهل الدين فان لم تجدوهم، فجالسوا أهل المُروءة من أهل الدنيا فانهم لايرفثون في مجالسهم.

ومما توارثه الناس من منثور الحكم: لا دين لمن لا مُروءة له.

وقال الإمام الشافعي رضي اللّه عنه، واللّه لوكان الماء البارد يُنقِص من مروءَتي لشربته حاراً.

قال الحصين بن المنذر الرِّقاشي:

إنَّ المُـــروءَةَ ليس يُدركُها امـرؤٌ ... ورِثَ المكارِمَ عــن أبٍ فأضاعَهـا

أمَرتـــهُ نفسٌ بالدّنــاءَةِ والخَنــا ... ونهتـه عـن سبـل العُـلا فأطاعهـا

فـــإذا أصابَ مِن المكــارمِ خُلَّـةً ... يَبنـي الكـريمُ بهـا المكارمَ باعهـا

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة ؟

فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل.

المروءة مرتقى صعب

وعلى العموم فالمروءة لا تنال إلا بتحمل المشاق وتجشم الصعاب ومخالفة هوى النفس والتعفف عن الحرام وكف الأذى عن خَلْقِ اللّه، وعدم الطمع فيما في أيدي الناس،

وقالت العرب: المروءات في جهد. كما ذكرنا سابقا أي أن المروءات لا تحصل إلا بالتعب وبذل الجهد وتحمل المشقة. ولا تنال المروءة إلا بتحمل المشاق، ولذلك قالوا سيد القوم أشقاهم. قال أبو تمام الطائي:

والحمد شَهدٌ لا يُرى مُشتارُهُ ... يَجنيهِ إلا مِن نقيعِ الحَنظلِ[٢١]

غُلٌ لِحامِلِه ويَحسَبه الذي ... لم يُوهِ عاتِقَهُ خَفيفَ المَحمِلِ[٢٢]

وقد صاغ المتنبي رحمه الله هذا المعنى شعراً، فقال:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهم ... الجوعُ يُفقرُ والإقدامُ قتالُ

وقال أيضا:

وإذا كانت النّفوسُ كباراً ... تَعِبت في مُرادِها الأجسامُ

وقد لخص الإمام الحبيب عبد الله بن علوي الحداد[٢٣] رحمه الله معاني المُروءة في قصيدته المشهورة المعروفة "بالوصية" نجتزء منها هذه الأبيات التي نرجو أن ينفع الله بها القارئ والسامع، قال رحمه الله واسكنه فسيح جناته:

---

(٢١) المشتار: قاطف العسل من خلية النحل، الحنظل: نبات شديد المرورة.

(٢٢) الغُل: طوق من الحديد أو غيره تقيد به اليدين والعنق، يوه: يتعب

(٢٣) هو الإمام الحبيب القطب الغوث عبدالله بن علوي الحداد العلوي الحسيني الحضرمي التريمي مربي العارفين الذي شاعت شهرته في أقطار العالم الإسلامي البعيدة والقريبة صاحب المؤلفات المفيدة الكثيرة، ومنها ديوانه المسمى "الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم" ولد بتريم عام ١٠٤٤هـ وتوفي بها عام ١١٣٢هـ

وَصيَّتـي لـك يـا ذا الفضـلِ والأدَبِ ... إنْ شئت أنْ تسكنَ السامي مِنَ الرُّتَبِ
تقـوى الإله الـذي تُرجـى مَراحِمُهُ ... الواحـدِ الأحَدِ الكَشَّـافِ لِلكُرَبِ
إلـزم فرائضَـهُ واتـرك محارِمَـهُ ... واقطـع لياليكَ والأيَّـامَ في القُرَبِ
وزيِّـن القلـبَ بالإخلاصِ مجتهـداً ... واعلـمْ بأن الرِّيا يلقيـكَ في العَطبِ

واحفـظ لسانَـك مِـنْ طعـنٍ علـى أحـدٍ ... مِـنَ العبـاد ومِـنْ نقـلٍ ومِنْ كَـذبِ[٢٤]
ونـزِّهِ الصَّـدرَ مِـنْ غشٍ ومِـنْ حَسَـدٍ ... وجانـب الكِبْرَ يـا مِسكِـينُ والعُجُـبِ
وارضَ التواضـعَ خُلْقـاً إنّـه خُـلُقُ ... الأخيارِ فاقْتَدْ بهم تنجو مِنَ الوَصَبِ[٢٥]

وخالـفِ النَّفسَ واستشعر عداوتها ... وارفض هواها ومـا تختارَهُ تُصِبِ
وازهـدْ بقلبك في الـدارِ التـي فَتَنَتْ ... طوائفـاً فرأوهـا غايـةَ الطَّلَبِ
وإن وجـدت فواسِ المُعْوِزِيـنَ تَفِضْ ... عليك مِـنْ رَبِّـك الأرزاق فاستَجِبِ
والوالـدانِ لهـم حـقٌّ يقـومُ بِـهِ ... مَـنْ يتَّـقِ اللّه والمُدلـون بالنسَـبِ
والجـارِ والصَّحبِ لا تنسَ حقوقَهُمُ ... واخـترمُصاحَبَةَ الأخيارِ وانتخِبِ
وخالِـقِ الناسَ بالخُلـقِ الكريمِ ولا ... تَعتـبْ علـى أحـدٍ منهـم ولا تَعِبِ
وانصِفْ ولا تَنْتَصِفْ مِنْهُم وناصِحْهُم ... وَقُـمْ عليهـمْ بِحَـقِّ اللّهِ وانْتَـدِبِ

---

(٢٤) النقل: النميمة

(٢٥) الوَصَبِ: مرض القلب، المرض مطلقاً

واحــــذر مُصاحَبَـةَ الأشـرارِ والحُمْقى والحاسدينَ ومَنْ يَلْوي على الشُّغَبِ(٢٦)
وحــالِفِ الصَّـبرَ واعلـمْ أنّ أوَّلَـهُ مُـرٌّ وآخِـرَهُ كالشَّهْدِ والضَّـرَبِ(٢٧)

(٢٦) الشغب: المجادلة وتهييج الشّر

(٢٧) الضرب: العسل الأبيض

الفصل الثالث

خوارم المروءة

الفصل الثالث

خوارم المروءة

الكذب من خوارم المُروءة:

المروءة تمنع الكذب وتدعو إلى الصدق. والكذب يفقد المروءة قال الشاعر:

وما شيءٌ إذا فكرتَ فيه … بأذهبَ للمُروءةِ والجمالِ

مِنَ الكذبِ الذي لا خَيرَ فيهِ … وأبعدَ بالبَهاءِ مِنَ الرِّجالِ

فالكاذب فاقد للمُروءة؛ لأن الكذب يجمع كل الشرور، والمؤمن لا يكذب؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (٢٨)

روى الإمام مالك في الموطأ والبيهقي في شعب الإيمان عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْم رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: "قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: "نَعَمْ"، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: "نَعَمْ"، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: "لا". (٢٩)

الغيبة من خوارم المُروءة:

الغيبةُ خيانةٌ وهَتْكُ سترٍ، وهي ناشئةٌ عن حسدٍ وغدر، وهذه صفات اللئام، وقد قيل: اللئيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغتاب. فالمغتاب ناقص المُروءة. لأنه

---

(٢٨) النحل - ١٠٥

(٢٩) رواه الإمام مالك في الموطأ، والبيهقي في شعب الإيمان

ارتكب خيانةً وهتك سترا لعبدٍ ستره الله؛ فأبى المغتاب إلا أن يكشف ما ستره الله.

قال عدي بن حاتم الطائي رحمه الله: الغيبةُ رَعْيُ اللئام،

وقال الحسن البصري رحمه الله: الغيبةُ فاكهةُ النِّساء.

قال الشاعر:

لا تلتمس من مساوي الناسِ ما سَتروا فيهتِكُ اللهُ سِتراً عن مساويكا

واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ولا تُعِب أحداً منهم بما فيكا

النميمة من خوارم المُروءة:

تجمعُ النميمةُ إلى مساويءِ الغيبةِ ومَذمَّتِها نَذَالةً وشراً، وتَضُمُّ إلى لُؤمها دناءَةً وغدراً؛ فالنميمة نذالة ودناءة وغدر، إضافة إلى كونها خيانة وهتك ستر.

فالنمام نَذل فاقد المروءة؛ لأن أفعاله تؤول إلى تباعد المتآلِفين، وتباغض المتحابّين، وتقاطع المتواصلين، إضافة إلى قطيعة الرحم، وإضعاف الثقة بين الناس، وبث الفرقة والخلاف، ونشر الريبة والتجسس.

الوشاية من خوارم المروءة:

الوشاية أو السعاية هي الوقوع في أعراض الناس عند الأمراء والحكام وأولي الأمر. قال: بعض الحكماء: لم يمش ماشٍ شرٌّ من واشٍ.

قيل في منثور الحكم: الصدق يزين كل أحد إلا الواشي أو النمَّام، فإنه أذم ما يكون إذا صدق.

وقيل: الواشي بين منزلتين قبيحتين: إما أن يكون صادقاً فيما قاله؛ فيكون قد خان الأمانة، وإما أن يكون كاذبا فيكون مخالفاً للمُروءة ومفترياً.

وخلاصة القول أن النميمة والوشاية كلاهما رأس الغدر، وأساس الشر، ولا يفعلهما إلا الأنذال فاقدو المروءة.

المراء والجدل يسقط المروءة

المراء هو كل اعتراض على كلام الآخرين بإظهار خللٍ فيه إما في اللفظ أو المعنى وإما في مقصد المتكلم.

إن الباعثَ على المراءِ شهوة الترفع عن الناس وإظهار العلم والفضل، التي تؤدي إلى الكبر وهي سبب المراء؛ وهي شهوة باطنة في النفس تؤدي إلى الرياء والتكبر على عباد الله. وإن أصحاب المروءة يأنفون ويترفعون عن هذه الأمور الدنيئة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يدخل الجنة من في نفسه مثقال ذرة من كبر كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أمـا الجدل فهـو قصد إفحام الآخر وتعجيـزه وتنقيصه بالقدح في الكلام ونسبته إلى القصور والجهل.[٣٠]

إن الباعثَ على الجدلِ شهوة الاعتداء على الآخرين؛ بتنقيصهم والتهجم عليهم وهي سبب المجادلة، وهي رغبة في إيذاء الآخر وتمزيق عرضه وتعريته وتنقيصه. وهي صفة مهلكة باطنة في النفس تقود إلى المشاجرة والكراهية والعداء، وكفى بها منقصة ومذمة للشخص وهي من خوارم المروءة.

---

(٣٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي،ج٣،ص١٥٣

قـال صلى اللّه عليـه وسلم: "ما ضل قوم بعد أن هداهم اللّه تعالى إلا أوتوا الجدل". [٣١]

قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لا تتعلم العلم لثلاث: لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به، ولا تتركه لثلاث: لا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضى بالجهل منه.

قال عيسى عليه السلام: من كَثُر كذبُه ذهبَ جمالُه، ومن لاحى الرجالَ سقطت مُروءتُه، ومن كَثُرَ همّهُ سَقمَ جسمُه، ومن ساء خُلُقُه عذّب نفسَه.

الخصومة تذهب المروءة

الخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود[٣٢]. قالت عائشة رضـي اللّه عنها، قال رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "إن أبغض الرجال إلى اللّه الألَدُّ الخصم." [٣٣]

وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط اللّه حتى ينزع"[٣٤].

قال بعض الحكماء: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين.

قال ابن قتيبة مر بي بشر بن عبد اللّه بن أبي بكرة، فقال: ما يجلسك ههنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي.

---

(٣١) أخرجه الترمذي

(٣٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي،ج٣،ص١٥٥

(٣٣) أخرجه البخاري

(٣٤) أخرجه ابن أبي الدنيا

فقال لي إن لأبيك عندي يداً، وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله مارأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءةِ، ولا أضيعَ لِلَذَّةٍ، ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال : فَقُمتُ لأنصرف،

فقال لي خصمي: مالك؟

قلتُ: لا أخاصمُك،

قال: إنَّكَ عَرفتَ أن الحقَّ لي،

قُلتُ: لا ولكن أُكرِمُ نفسي عن هذا.

قال: فإنّي لا أطلبُ منك شيئاً هو لك.

ولكن إذا كان للإنسان حقٌ لابُد له من الخصومةِ في طلبه أو في حفظه، فكيف يكون حكمه وكيف تُذَمُّ خصومته؟ إن المظلوم الذي يَنصر حجتَه بطريق الشرع من غير لدَدٍ وإسراف، ومن غير قصدِ عناد وإيذاء؛ ففعله ليس بحرام.

ومع ذلك فترك الخصومة أولى ما وجد إلى ذلك سبيلا، إلا إذا اضطرته الضرورة إلى ذلك. لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر. لأن الخصومة توغر الصدور، وتُهَيِّج الغضب، فإذا هاج الغضب نُسِيَ المُتَنازعُ فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين.

فالخصومــة مبدأ كل شر وكـذا المراء والجدل؛ فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضــرورة. ففتح باب الجـدل والخصومة يؤدي إلى الخشونـة في الكلام ونفور النـاس، وإن لم يكـن فيها إلا ذهــاب طيب الكلام وحسن الظـن والتفاهم بين

الناسـ لكفى. وطيب الكلام خلق محمـود ومطلوب. قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٣٥]

بذاءة اللسان من خوارم المروءة

قال صلى الله عليــه وسلم: "إياكم والفُحْش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التَّفَحُّش."[٣٦]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مَنْ سَلَّمَ عليك مِن خلق الله، فاردد عليه السلام، وإن كان مجوسياً. وقال أيضاً: لو قال لي فرعون خيراً لرددتُ عليه.

قال صلى الله عليه وسلم: "الكلمة الطيبة صدقة."[٣٧]

وقـد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب قتلى بدر من المشركين. وقـال لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيءٌ مما تقولون، وتؤذوون الأحياء، ألا إن البذاءَ لؤم."[٣٨]

الفحش وبذاءة اللسان عبارة عن التعبير الصريح عن الأمور المستقبحة، ولأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها في كلامهم، ولكن أهل الصلاح يتحاشون عنها ويَدُلّون عليها بالكنايات والرموز.

قـال رسول الله صلى الله عليه وسلـم: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء."[٣٩]

---

(٣٥) البقرة - ٨٣

(٣٦) أخرجه النسائي والحاكم

(٣٧) أخرجه مسلم

(٣٨) أخرجه ابن أبي الدنيا

(٣٩) أخرجه الترمذي

وقال صلى اللّه عليه وسلم: "سبابُ المؤمنِ فسوقٌ، وقتالُه كفرٌ."[٤٠]

اللعن من خوارم المروءة

اللعن هو الطرد والإبعاد من اللّه ومن رحمة اللّه، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده عن اللّه.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "لا يكون المؤمن لعاناً"[٤١]

وعن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سمـع أبا بكر وهـو يلعن بعض رقيقه، فالتفت إليه وقـال: "يا أبا بكر أصديقين ولعَّانـين، كلا ورب الكعبـة، مرتين أو ثـلاث."[٤٢] فأعتق أبو بكـر يومئذٍ رقيقه جميعهم وقال: لا أعود؛ أي لا أعود إلى اللعن.

ولا يجوز لعنُ أي شخصٍ حيّ بعينِه؛ لأنه قد يتوب ويسلم ويموت على الإيمان، وإن كان في الحال كافراً أو مجوسياً أويهودياً أو مبتدعا. لأن القلوب بيد اللّه، والهداية من اللّه، وقد رأينا في حياتنا المعاصرة كثيرا من الذين دخلوا في الإسلام كانوا يهوداً أو نصارى أو بوذيين أو ملحدين. وباب التوبة مفتوح والإسلام دين عالمي لجميع أصناف النشر.

قال صلى اللّه عليه وسلم: "لا يرمي رجلٌ رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن صاحبه كذلك."[٤٣]

---

(٤٠) متفق عليه

(٤١) أخرجه الترمذي

(٤٢) أخرجه ابن أبي الدنيا

(٤٣) متفق عليه

وبالجملة فإن لعنَ الأشخاصِ أو تكفيرهم أو رميهم بالفسق أو اتهامهم بالخروج عن دائرة الإسلام خطر عظيم. لأن التهمة ترتد إلى قائلها وتلبسه إذا كان الآخر بريئا مما نسب إليه، فليحذر المسلم من قذف الآخرين بالتهم جزافا بدون بيِّنة يقينية.

وإن السكوت عن اتهام الآخرين لا خطر فيه، حتى لو سكت المرء عن لعن إبليس. وإن الاشتغال بذكر الله، والأعمال الصالحة، وصلة الرحم، وإصلاح ذات البين، أو السكوت أفضل من الاشتغال بلعن الكفار، أو لعن ابليس، ويقرب من اللعن الاشتغال بالدعاء على الآخر بالشر حتى لو كان ظالما. إن الاشتغال بذكر الله والأعمال الصالحة أفضل من الاشتغال بلعن الظالمين والكفار والدعاء عليهم.

الطمع من خوارم المروءة

إن الباعث على الطمع الشَّرَه وحب الدنيا، وعدم القناعة، وقلة الأنفة، وقلة عزة النفس. فمن لا يحترم نفسه ولا يعزها بل يرى المال أهم من عزة النفس فانه يهون عليه هوان نفسه مقابل الأمل في الحصول على المال. قال الشاعر:

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ ... فإن ذلك نقصٌ منك في الدّينِ

فإن الطمع نقص في الدين من باب عدم إيمانه بأن الله هو الذي يوزع الأرزاق على عباده وهو الرزاق الكريم سبحانه وتعالى، ومن باب عدم القناعة بما قسم الله لك ومددت عينيك إلى ما قسمه الله لغيرك ورغبت في الحصول

عليه. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٤٤)

وروي أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أوصني، قال عليه الصلاة والسلام: "عليك باليأس مما في أيدي الناس، فإنه الغنى، وإياك والطمع، فانه الفقر الحاضر، وصَلِّ صلاتك وأنت مودِّع، وإياك وما يعتذر منه."(٤٥)

الإسرار بالخيانة من خوارم المروءة

الإسرار بالخيانة خلق ذميم لا يقوم به إلا الأنذال، وليس هذا من أخلاق الرجال،

الخيانة ضِعة وذِلَّة ومَهانَة، ويكفي الخائن ما يجده في نفسه من المَذَلّة، والخائن يحتقر نفسه، وينظر إلى نفسه نظرة دونية؛ لأنه يعلم من نفسه أنه يقوم بعمل ينافي الفضيلة والمُروءة والأخلاق الحميدة. لذا كانت الخيانة من الأمور التي تعجل عقوبتها في الدنيا؛ لأن صاحبها يحكم على نفسه بذلك.

قيل في منثور الحكم: مَنْ يَخُن يَهُنْ. (أي يحتقر ويزدرى).

وروى سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾(٤٦) وكان اليهود يعنون بذلك أن أموال العرب حلال لهم.

---

(٤٤) طه: ١٣١

(٤٥) أخرجه الحاكم في صحيحه، وأخرجه أبو نعيم في المعرفة

(٤٦) آل عمران – ٧٥

قال صلى الله عليه وسلم : "كذب أعداء الله! ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر." (٤٧)

وقال صلى الله عليه وسلم: "أدِّ الأمانة إلى من إتمنك، ولا تخن من خانك."(٤٨)

وروي عن علي بن أبي طالب شعراً:

أدِّ الأمانـةَ، والخيانـةَ فاجتنـب   واعـدل ولا تظلـم يَطيـبُ المَكسـبُ

وانظر إلى الأدب النبوي والرقي الخلقي الإسلامي كيف يُحرِّم الخيانة حتى لِمن يخونك، انظر إلى هذا الأدب النبوي الإنساني الشريف السامي الذي يحرم الخيانة تحريما عاماً شاملاً على جميع أصناف البشر المسلمين منهم وغير المسلمين حتى ولو أسلفوا بالخيانة، وهذا من رأفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورحمته بأمته وبالبشرية كلها وحرصه على حمايتهم من أعدائهم الخارجيين ومن أنفسهم. ولا عجب في ذلك فقد شهد الله تعالى له بذلك، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٤٩) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٥٠)

(٤٧) ذكره ابن جرير الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن

(٤٨) أخرجه أبو داوود والترمذي

(٤٩) التوبة – ١٢٨

(٥٠) الأنبياء ١٠٧

وقد روي أيضا عنه صلى الله عليه وسلم: "لا تزال أمتي بخير ما لم ترَ الأمانةَ مغنماً والصدقةَ مغرما."

وقد قيل : أن مما تُعَجَّل عقوبتُه في الدنيا ولا تؤخر: الأمانة تخان، والإحسان يكفر، والرحم تقطع، والبغي على الناس.

نشاط - ١ :

١. اضرب أمثلة من حياتك الواقعية على أشخاص تَحَلّو بالأمانة فحفظهم الله وستر عليهم ووفقهم. وبالمقابل اضرب أمثلة على أشخاص خانوا الأمانة فانكشفوا ونالهم العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

٢. اذكر بعض المواقف في حياتك التي كنت فيها أميناً، وتفخر بها لأنك لم تخن الأمانة. واحمد الله واشكره أن هداك إلى ذلك.

٣. احزم في نفسك أن تكون أميناً وأن لا تخون الأمانة أبدا.

الفصل الرابع

مقومات المروءة وشروطها

الفصل الرابع

مقومات المروءة وشروطها

علو الهمة من مقومات المروءة

علو الهمة هو السعي لاكتساب معالي الأمور. والهمة العالية باعثه على التقدم، رافضة للخمول والضعة والمهانة والاستكانة، وهي علامة للجد في التماس المعالي قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : "إنّ اللّه يحبُّ معالي الأمور وأَشرافها، ويكرهُ دنيَّها وسفسافها."[٥١]

وروي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه قال : "لا تَصغرَنَّ هِمَمُكم، فإنّي لَمْ أَرَ أَقْعَدُ عنِ المَكرُماتِ مِنْ صِغَرِ الهِمَم".

وقال بعض الحكماء: الهمةُ رايةُ الجدِّ. لأنَّ الهِمةَ العالية كلها عزم وحزم وعمل جاد، وإصرار على بلوغ المرام. إذن التحلي بالهمة العالية شرط مسبق للارتقاء إلى مراتب المروءة العالية.

وقال بعض العلماء إذا طلب رجلان أمراً، ظفر به أعظمهما مُروءة. يعني أعلاهما همة.

نشاط – ٢:

١. اضرب أمثلة على علو الهمة من خبراتك الشخصية أومما قرأت عنه أو سمعته.

---

(٥١) رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي

٢. حدد هدفاً متحدِّياً لقدراتِك ثم اعزم على الوصول إليه ولا تيأس مهما واجهتك الصعوبات، واطرق جميع البدائل المشروعة الممكنة.

٣. تذكر عملاً قمتَ به واجهتك فيه صعوبات كبيرة ولكن الهمة العالية والعزم والإصرار الذي تحليت به ساعدك على تحقيق مقصودك.

شرف النفس من شروط المروءة

شرف النفس هو طلبها للآداب ورغبتها في الفضائل وسعيها للتأدب وتحصيل العلم والفضائل. وان شرف النفس شرط مسبق لقبول التأديب وطلب العلم والتعلم، واستدامة تقويم الأخلاق وتهذيب النفس وتزكيتها. فإذا كانت نفس المرء طامحةً للمعالي، راغبةً في اكتساب مكارم الأخلاق، جادةً في التعلم والتحصيل، كانت النفسُ شريفة.

وأما إذا مالت النفس إلى الأمور الدنيئة واستمرأت الكسل، وحب الشهوات، وارتكاب المحرمات، ولم ترغب في التعلم، ولم تطمح لنيل معالي الأمور؛ فإنها توصف بالدناءة. والنفسُ الدنيئة عاجزةٌ عن تحصيل الآداب، وعاجزة عن التعلم واكتساب الفضائل؛ لأنها غير جادة في التعلم، وغير راغبة في اكتساب الفضائل، فطلب المعالي ليس من الأهداف التي تسعى لنيلها، بل إنها تسير في الاتجاه المعاكس، وتميل إلى نيل سفاسف الأمور. كما أنها لا ترغب في التعلم وطلب العلم.

وإذا اجتمع للمرء شرف النفس مع علو الهمة كان جديرا بالمعالي والفلاح وإذا اجتمعت له دناءة النفس مع دنو الهمة كان جديرا بالضّعة والذلة والفشل. أعاذنا الله وإيّاكم من دناءة النفس وصغر الهمم.

وإذا تمني الإنسان الحصول على المراتب العالية، ولكن سلب منه شرف النفس؛ أي أنه سُلب الرغبة في طلب الفضائل؛ فإنه أصبح يطلب أمراً يفتقر

إلى وجود الرغبة في تحقيقه. وأصبح كالأخرس الذي يريد تعلم الخطابة، وعاش يطلب المنى ويتمنى على الله الأماني ولكن دون جدوى.

وقيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالا؟

قال: من بعدت همته أي أهدافه، واتسعت أمنيته، وقصرت آلته، وقلت مقدرته. أي أنه لم يستخدم الوسائل المناسبة لتحقيق أهدافه الكبيرة. فمثل هذا المرء يقضي عمره في التمني على الله أن يحقق أمانيه الكبيرة الكثيرة، ولكنه لا يعزم ويحزم في العمل الجاد والبحث عن الوسائل والأساليب المناسبة لتحقيق أهدافه والمبادرة بالفعل على أرض الواقع. مثل هذا الشخص إنسان عاجز يعيش في حسرة وندامة يندب حظه باستمرار ويلقي اللوم على أهل زمانه لأنهم - حسب تصوره السقيم - قصروا في معرفة إمكاناته ومواهبه ولم يعطوه حقه.

وقيل في منثور الحكم: من دام كسله، خاب أمله.

قال الشاعر:

فنفسك أكرمها وان ضاق مسكن ... عليك فأطلب لنفسك مسكنا

وإياك والسكنى بمنزل ذلةٍ ... يُعَدُّ مُسيئا فيه من كان محسنا

وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الإنسان؟

قال أن يعرف نفسه، ويكتم الأسرار.

فإذا اجتمع للإنسان معرفة نفسه وكتم الأسرار، واقترن شرف النفس بعلو الهمة، فقد توفرت شروط المروءة، وكان الإنسان جديراً بتحقيق آماله، ومؤهلا للنجاح والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. وإذا لم يتحلَّ بشرف النفس وعلو الهمة فقد افتقر إلى الوسائل المؤدية إلى بغيته فلا يلومن إلا نفسه.

نشاط – ٣:

١. اضرب مثالا من خبرتك الشخصية على عمل قمت به وكانت الهمة العالية والرغبة الجامحة في تحصيل العلم ومكارم الأخلاق هي التي ساعدتك على تحقيق أمنيتك.

٢. ادرس السيرة الشخصية لحياة الإمام الشافعي رحمه الله وبين المواضع التي تجلت فيها الهمة العالية، وشرف النفس.

٣. اعزم على أن تكون، اعتباراً من هذه اللحظة، شريف النفس عالي الهمة حازماً في طلب المعالي واكتساب الفضائل، صبوراً على تحمل المشاق في سبيل تحقيق أهدافك.

العفة من شروط المروءة

معنى العفة

عف الرجل، كف وأمتنع عما لا يحل، ولا يليق، ولا يَجْمُل، من قولٍ أو فعل. فالعفة في القول والفعل هي الأمتناع والكف عما لا يحل قولاً أو فعلا.

والعفة عبارة عن الاتزان في الميول والرغبات، وكبح جماح الشهوات والعواطف، وهي امتناع اختياري عن ارضاء حاجةٍ أو رغبةٍ نفسية، وهي حفظ الفرج عما لا يحل وترك الشهوات الدنيئة، وطهارة الجسد والامتناع عن دنايا الأمور.

العفة عن المحرمات

وقـد روي عن النبي صلى الله عليه واله وسلـم أنه قال: "أحب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن"(٥٢)

قال بعض الحكماء: مِنْ أَحَبِّ المكارمِ اجتنابُ المحارمِ.

فمكارم الأخلاق وارتكاب المحرمات لا يجتمعان في شخص؛ ولابد للإنسان أن يختار أحد الأمرين: إما مكارم الأخلاق؛ فيكون كريماً عفيفاً ذا مروءة محبوباً عند الله وعند الناس. وإما ارتكاب المحرمات؛ فيكون مهيناً نجساً فاقداً للمروءة مذموماً عند الله وعند الناس. أعاذنا الله وإياكم من ارتكاب المحرمات.

---

(٥٢) تنبيه الخواطر : ٢/٣

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تقبلوا إلى بست أتقبل إليكم بالجنة، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، فإذا أوتمن فلا يخون، غُضوا أبصارَكم، واحفظوا فروجَكم، وكفوا أيديكم."[٥٣]

ومن الأشياء التي تعين المرء على ضبط الفرج عدم إتباع الشهوة، وعدم إرسال الطرف، وترغيب النفس بالحلال، وإشعارها بتقوى الله وإقناعها بالمباح، فإن الله ما حرم شيئا إلا عوض عنه بمباح من جنسه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أمر الله بشيء إلا وأعان عليه وما نهى عن شيء إلا وأغنى عنه.

وأما عفاف البطن فهو حفظه عن تناول الحرام، والحرص على طلب الحلال؛ ففي الحديث مَنْ أكل حراماً عصى الله شاء أم أبى، ومَنْ أكل حلالاً أطاع الله شاء أم أبى. فهذه قضية خطيرة يبنى عليها ما بعدها من أعمال.

طالما حذر العلماء من أكل الحرام. كما حذروا من الشبع من الأكل الحلال. قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر رحمه الله[٥٤]:

---

(٥٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان

(٥٤) عبد الله بن حسين بن طاهر باعلوي الإمام الجامع بين علمي الباطن والظاهر الزاهد الورع الداعي إلى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، ولد بتريم –حضر موت عام١١٩١هـ حفظ القرآن الكريم وأخذ عن علمائها وعلماء الحرمين وأخذ عنه الجمع الكبير منهم العلامة محمد بن حسين الحبشي مفتي مكة والعلامة حامد بن عمر السقاف والشيخ عبد الله بن أحمد باسودان والعلامة عيدروس بن عمر الحبشي وكان يقوم بالليل بعشرة أجزاء، ويصلي

"فـإذا وجـدت الحـلال فاحرص على أن تقتصر منه علـى ما دون الشبع؛ فـإن الشبع يقسـي القلب ويفسد الذهـن، ويبطل الحفظ ويثقِّـل الأعضاء عن العبادة، ويقوي الشهوات، والشبع من الحلال مبدأ كل شر؛ فكيف إذا كان من الحرام؟!"(٥٥)

وقال أيضا:

والـزم الجـوع إن شئـت النّجا والظفَـرْ ثَمْ — واعلـم أنـه أتانا في الحديـث المعظَّمْ

مـا مَـلا ابـن آدم من وعـا شـر وأوخمْ — مِـنْ مَلا البطـن فاعلم ما أقولـه لك اعلمْ

والشِّبَـعْ من حـلالٍ رأسْ للشّـر والذمّ — ذا إذا كان مِـنْ حِلّـه فكيـف المُحَـرّمْ

وأما اللسان فإنما خلقه الله لك لتعبر به عما في قلبك، وتقضي به حاجاتك في التواصل مع أفراد المجتمع، وترشد به خلق الله إلى ما يرضي الله، وتكثر به من ذكر الله وتلاوة القرآن الكريم وتستخدمه في التعليم والتعلم. فإذا استخدمته في غير ما خُلِق له فقد كفرت نعمة الله فيه، وفي الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟"

الضحى بثمانية أجزاء له ديوان منظوم وعدد من المؤلفات منها كتاب "المجموع" وعلى كثرة أعماله ومنجزاته كان يقول:

يـا ربِّ مـا مَعْنـا عمـلْ — وكَسْبنـا كلُّـهْ زَلَـلْ

لكـنْ لَنَا فيـكَ أَمَـلْ — تُحـيي العِظـامَ الرَّامَـةْ

وتوفي بتريم عام ١٢٧٢هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

(٥٥) عبد الله بن حسين بن طاهر، المجموع، ص٣٦١

وأما كف اللسان عن أعراض الناس فهو أمر ضروري لسلامة المجتمع، ونشر الألفة والمودة والتعاون بين الناس؛ فإن تناول الأعراض مما يوغر الصدور، وينشر الشرور في المجتمع، فهو سبب لانتشار الغيبة، والنميمة، والقول الفاحش، الذي ينتجُ التباغضَ بين الأقارب والجيران وقطيعة الرحم وينشرُ الشرورَ بأنواعها.

وإياك والسبّ، والقذف، والشتم؛ ولا تلعن شيئًا من خلق الله، ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلةِ بشركٍ أو كفرٍ أو نفاقٍ أوفسق؛ فإن المُطَّلع على الضمائر والسرائر هو الله تعالى.(٥٦)

قال صلى الله عليه وسلم: "إن شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه"(٥٧)

وقال بعض الحكماء: إنماء هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال.

ذلك بأن الله أمر المسلم بإمساك اللسان عن الخوض في فضول الكلام، وأمره بإنفاق فضول المال على عباد الله المحتاجين. ونجد كثيراً من الناس يفعلون عكس ما أمرهم الله به؛ فيمسكون ما أمر الله به أن ينفق وهو فضول المال، وينفقون ما أمر الله به أن يمسك وهو فضول الكلام؛ فيتكلمون فيما لا يعنيهم ويقعون في أعراض الناس بالغيبة والنميمة، ويخوضون في أمور العامة والخاصة بعلم وبغير علم؛ فيقعون في خسران الدنيا والآخرة. أجارنا الله وإياكم من ذلك.

---

(٥٦) عبد الله بن حسين بن طاهر،مرجع سابق، ص٣٦١

(٥٧) متفق عليه

العفة عن المآثم

المآثم هي الأعمال التي يأثم مرتكبها أي يكسب إثماً بسبب عملها. وهذه الأعمال تكون ضارة بالآخرين، وهي حسب تصنيف الماوردي نوعان أيضا: الكف عن المجاهرة بالظلم، وزجر النفس عن الإسرار بالخيانة.

أما المجاهرة بالظلم فقد يكون من قوة الظالم ومُكْنَتِه مما أعطاه الله من وسائل القوة، وتطاولِ مُدَّتِه في الحكم؛ فيغتر بقوته، وبخضوع الناس وانقيادهم له، فينسى الله الذي وهبه كل ما عنده، ويتجبر في عباد الله، كما فعل النمرود وفرعون وغيرهم من المستبدين عبر التاريخ، وقد ابتليت الأمة في العصر الحاضر بعددٍ من المستبدين الأشقياء الذين طغوا وبغوا وأكثروا في الأرض الفساد، الذين أضحى ظلمهم ظاهرا جلياً أمام الخلائق؛ وأصبحوا سبباً لانتشار الفتنه في المجتمع، وقد جرت سنة الله في خلقه أن تحيط بالظالم فتنتُهُ وأعمالُه الخبيثة فتهلكُه، وقد رأينا في عصرنا هذا كيف أهلك الله بعضهم، وسيهلك الله الآخرين بحوله وقوته، وهذه سنة الله في الكون.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٥٨]. وفي الحديث الشريف عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"،[٥٩] قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢)؛ متفق عليه."

---

(٥٨) فاطر - ٤٣

(٥٩) متفق عليه

وأكثر ما يقع في هذه المعصية الحكام المستبدون، وتكون عاقبتهم الافتضاح والخسران والهلاك، وإن في شواهد التاريخ ما يغني، وفيها العبرة لمن أراد الاعتبار. والاستبداد ليس مقصوراً على الحكام، بل قد يقع فيه آحاد الناس الذين لا يملكون من أمر الحكم شيئاً، فقد يكون المرء مستبداً في عمله الصغير أو في أسرته. فالاستبداد حالة نفسية، نعوذ بالله منها، وينبغي على المرء أن يتخلص منها بمجاهدة نفسه على إعطاء كل ذي حق حقه، وتربيتها وتزكيتها بالفضائل، ومكارم الأخلاق التي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لإتمامها.

وروي عـن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الفتنة نائمة، فمن أيقظها صار طعاماً لها"(٦٠)

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر رحمه الله:

إنّ الفـتنْ فيهـا المِحَـنْ مـن كلّ فـنْ　　فتوَقَّهـا يـا صاحبـي وخليلـي

هـذا وقـد جـاء الحديـثُ بـأنّ مَـنْ　　يوقـظُ نومتَهـا بفعلٍ أو قيـلِ

ملعـــون مطـرودٌ بقـــولِ محمـدٍ　　إنْ لـــم يتُـب بشِّـرْه بالتنكيـلِ

فيهــــا الرزايـــــا والبلايـا كلهـــا　　فيهـا هـلاك الديـن بالتعجيـلِ(٦١)

وقال بعض الحكماء: صاحب الفتنة أقرب شيء أجلا، وأسوأ شيء عملا،

---

(٦٠) رواه السيوطي في الجامع

(٦١) عبد الله بن حسين بن طاهر ،مرجع سابق، ص٥٤٩

وإن الذي يجاهر بالظلم معتمداً على مُكنَتِه وقوته، فإن مجاهرته تكون كالنار إذا وقعت في الهشيم اليابس فلا تبقى شيئا حتى إذا أفنت ما وجدت أحاطت بالظالم فأهلكته فلا تضمحل وتخمد إلا بإهلاكه.

وإن الباعث على المجاهرة بالظلم قسوة القلب والجرأة على محارم الله وهما ناتجان عن الجهل، والغلظة والجفاء.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "أطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإن اللعنة تنزل عليهم"[٦٢]

وروي عـن جعفر الصادق عـن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليـه وسلـم: "يا علي أتـق دعوة المظلوم، فإنه إنما يسـأل الله حقه، وإن الله لا يمنع ذا حق حقه."[٦٣]

وقال بعض البلغاء من جار حكمه أهلكه ظلمه.

قال الشاعر:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظـالم إلا سيبلى بأظـلم

نشاط – ٤:

١. اضرب أمثلة على العفة بأنواعها من خبراتك الشخصية أومما قرأت عنه أو سمعته.

---

(٦٢) أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد

(٦٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد

٢. حدد لنفسك مجالا من مجالات العفة؛ ثم اعزم على أن تكون عفيفا في ذلك المجال؛ فإذا فعلت تكون قد بدأت بالسير في طريق النجاح والفلاح، فأبشر بالخير، ثم انتقل إلى مجال آخر وكن عفيفا فيه وهكذا.

٣. اعزم أمرك – اعتباراً من هذه اللحظة – أن تكون عفيفا نظيفاً طاهراً تعف عن المحرمات والمآثم وكل ما لا يليق بالرجل العفيف الشجاع الكريم الشهم.

النزاهة من شروط المروءة

قد صنف الماوردي النزاهة في نوعين: نزاهة عن المطامع الدنيئة، ونزاهة عن مواقف الريبة:

النزاهة عن المطامع الدنيئة:

يمكن تقسيم المطامع الدنيئة إلى قسمين الأول طمع في الأمور المادية الدنيوية، إن الطمع في الأمور الدنيوية ذل في حد ذاته، لأنه تعبير عن دناءة الهمة وضعة النفس وهوانها وميلها إلى الأمور الدنيئة.

والثاني ميل النفس إلى الشهوات الدنيئة والرذائل، وعدم سعيها لاكتساب مكارم الأخلاق وهو ما يمكن تسميته دناءة النفس؛ هي صفة متأصلة في النفس ولؤم في الطبع، وإن التخلص منها يحتاج إلى مجاهدة النفس مجاهدات كبيرة.

والذل والدناءة من خوارم المروءة. قال الشاعر:

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإن ذلك نقصٌ منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون

وإن الباعث على الطمع الشَّرَه، وعدم القناعة، وقلة الأنفة، وقلة عزة النفس. فمن لا يحترم نفسه ولا يعزها بل يرى المال أهم من عزة النفس فانه يهون عليه هوان نفسه مقابل الأمل في الحصول على المال. وإن الباعث على الدناءة ميل النفس إلى الرذائل واستحسانها القبائح والرغبة في اكتسابها.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أوصني، قال عليه الصلاة والسلام: "عليك باليأس مما في أيدي الناس، فإنه الغنى، وإياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر ،وصلّ صلاتك وأنت مودع، وإياك وما يعتذر منه."(٦٤)

قال الشاعر:

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع

ولا يحسم الطمع ودناءة النفس إلا بالقناعة بما قسم الله لك في الدنيا، واليأس مما في أيدي الناس، والطمع فيما عند الله، والترفع عن دنايا الأمور وسفسافها، والتطلع إلى اكتساب المكارم والأخلاق الحميدة. فإن العلم بالتعلم، ومن رغب في شيء ينبغي أن يسارع في العمل إلى تحقيقه. فهذا شرط لحصول النزاهة.

---

(٦٤) أخرجه الحاكم في صحيحه، وأخرجه أبو نعيم في المعرفة

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر:

يـا مريديـنَ السعـادهْ والتعلـمْ والإفـادهْ — فاطلبـوا دأبـاً علومـاً فضلُهـا فـوق الشهـادهْ

واتركـوا قيـلاً وقـالاً واغتيبـاً لعبـادهْ — أيـن خُطَّـاب المعـالي مَـنْ هُـمُ للخـيرْ قـادهْ

واذكـروا اللّه كثـيراً فـاز مَـنْ ذِكْـراهْ زادهْ — إنّ ذِكْـرَ اللّـهِ بـاقٍ غـيرُ ذكـر اللّه عـادهْ

والقناعـهْ خـيرُمـالٍ بَخْـت مَـنْ مالُـهْ زَهـادهْ — ليس يُحرَقْ ليس يُسرَقْ ليس يُخشى مِنْ فسادهْ

والمقصود أن القناعة مالٌ لا يخشى عليه من الحرق أو السرقة ولا يخشى عليه من الفساد؛ فالقناعة هي الغنى الحقيقي، والطمع هو الفقر المحقق.

وقال أيضاً:

ضاقت أسباب البرايا ما بقي إلّا القناعهْ — فالزموها باقتصادٍ واجعلوها اعلى بضاعهْ

فـازَ عبـدٌ قـد عرَفْهـا ثـمَّ سوَّاهـا متاعـهْ — لعظيـمِ الفضـلِ ربِّـي الذي منـهُ القناعَهْ

عدم الحاجة إلى الناس من شروط المروءة

إن صيانة النفس عن الحاجة إلى الناس من شروط الأنفة وعزة النفس فان من احتاج إلى الناس ليقيم أَوَدَهُ ذَلَّ، لذلك قالوا: المحتاج إلى الناس ذليل مستثقل، ومن أمثال العرب: كلب جوال خير من أسد رابض، فالكسب اللازم لصيانة النفس هو ما أفضى إلى سد الحاجات الضرورية للحياة، ويجب أن يكون الكسب من الوجوه المباحة شرعا وينبغي الابتعاد عن المحرمات وتوقي الأشياء المحظورة، إنَّ كسب المال من الوجوه المستخبثة لا بركة فيه، فإنْ صُرِف في برٍّ لا يُؤجر، وإنْ صرف في مدح لا يُشْكَر،

قــال صلــى الله عليه وسلم: "لا يعجبك رجل كسبَ مــالاً مِنْ غير حِلِّه، فإن أنفقه لم يُقبل منه وإن أمسكه فهو زاده الى النار." (٦٥)

وقال بعض الحكماء: شرُّ المال ما لزمك إثم مكسبه، وحُرِمتَ أجرَ إنفاقه.

ولذلك ينبغي طلب الكسب الحلال من الجهات التي لا يلحقه فيها غضاضة، ولا يَتدنَّس بها عرضُه، فإنَّ المال يطلب لصيانة الأعراض وليس لا بتذالها، ولعِزَّةِ النفس وليس لإذلالها،

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر رحمه الله:

والأكــل مــن حـــلالِ — مـــن هـــذه الأمـــوالِ
فرضٌ فقم بالفرضِ — تفـــوزُ يـــومَ العرضِ
واحـــذر مـــن الحـــرامِ — فـــي أكـــلٍ أو إدامِ
أو مـــركـبٍ أو ملبـــوسِ — أو موضـــع الجـــلوسِ
والسعـــي للعيـــالِ — بـــالكسبِ مِنْ حـــلالِ
فيـــه فضائـــل جمَّـــهْ — معروفـــةٍ للأمّـــهْ
بـــل هـــو كالمجـــاهـدْ — عندَ المليـــك الـــواحدْ
أمـــا الحـــرام المحضُ — فـــالبعدُ عنـــهُ فرضُ
مَنْ يتـــرك الشبهـــاتِ — وســـائرِ الشهـــواتِ

---

(٦٥) رواه الحاكم،والبيهقي

يتـــرك مِنَ الحـــلالِ ... شيئـــاً نقيـــاً حـــالي
مِـنْ خـــوفِ الانجـرارِ ... لموجــــبِ البـــوارِ

كيف تصون نفسك عن الحاجة للناس؟

نخلص مما سبق أن صيانة النفس عن الحاجة إلى الناس لا تتم إلا بالكسب الحلال، ولا تتم صيانة النفس عن الحاجة إلى الناس إلا بما يلي:

١- **عمل المرء بيده**؛ وهي أن يتعلم الإنسان حرفة يعمل بها ويكسب أجرا يسد حاجته وحاجة أهله. أو أن يعمل في الزراعة أو التجارة أو الصناعة فيوفر لنفسه ولأهله ما يسد حاجاتهم الضرورية.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: "يا حبذا المال أصون به عرضي وأرضي به ربي".

قال صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير"(٦٦).

٢- العامل الثاني الذي يساعد في صيانة النفس عن الحاجة للناس حسن التدبير، وقد قيل التدبير نصف العيش. ويقصد بالتدبير حسن إدارة المال والاقتصاد في المعيشة؛ بحيث يبتعد المرء عن الإسراف والتبذير مِنّ جهة، ويبتعد عن التقتير من جهة أخرى. فإنّ يسير المال مع حُسن

(٦٦) رواه ابن عسكر

التقدير، وإصابة التدبير أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثير المال مع فساد التقدير وسوء التدبير،

قال الحكماء: الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة،

وقيل لبعض الحكماء فلان غني، فقال لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيرَه في ماله.

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة : فقال العفة والحرفة. أي أن المرووءة تكمن في كف الحواس عن الحرام في القول والفعل ظاهراً وباطنا، وفي أن يكون للمرء حرفة يعمل بها لكسب الرزق الحلال له ولمن يعيل.

٣- **العمل الجاد الدؤوب**: قال بعض الحكماء: يا بني لا تكن على أحد كلاً، فانـك تزداد ذلاً، واضـرب في الأرض عودا وبـدءا، ولا تأسف لمال كان فذهب، ولا تعجز عن الطلب لوصـب[٦٧] ولا نصب[٦٨]؛ فإن ذوي الهمم العلية والنفوس الأبية[٦٩] يرون ما وصل إلى الإنسان كسبا أفضل مما وصل إليه إرثا.

---

(٦٧) **الوصب**: المرض

(٦٨) **النصب**: التعب

(٦٩) النفوس الأبية أي العزيزة التي تأبى الذل

قال الشاعر:

لا استلذ العيش لم أدأب له طلباً وسعيـاً في الهــواجـرِ والغَلَس

وأرى حرامـاً أن يواتينـي الغنـى حتى يُحـاوَلُ بالعنــاءِ ويُلتَمَس

فأصـرف نوالَك عن أخيـك مُوَفّراً فالليـثُ ليس يُسيغُ إلّا ما افترس

٤- **عدم سؤال الناس والتحفظ من احتمال المنن:** وكذلك ينبغي الصبر إذا ضاقت اليد وعدم سؤال الناس، فإن من المروءة صيانة النفس عن تحمل المِنَن مِنْ أحاد الناس؛ فإن المِنَّةَ استرقاقُ الأحرار، فالمنَّة تُحدِث ذِلَّة في نفس الممنون عليه، كما تحدث - في بعض الحالات - علواً واستكباراً وسطوةً في نفسية المانِّ. وإن في الاسترسال في الاستعانة بالآخرين تثقيل عليهم، ومن ثَقَّل على الناس هان، ولا قَدْر عند الناس لمُهان.

قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه خدمك بنوك، فقال: أغناني الله عنهم. وسئل أحد الحكماء، ما المروءة فيكم؟

قال: الاستغناء عن الناس.

لذلك ينبغي أن يعمل الرجل على اصلاح ماله لأنَّهُ من مُروءتِه؛ حتى يتمكن من القيام بحوائجه وحوائج أهله، فإنه لا يَنْبُل من احتاج إلى أهلِه ولا من احتاج أهلُه إلى غيره. وهكذا نرى أن اصلاح المال وحسن التدبير من مقومات المروءة. وينبغي اجتناب الرَّيب فإنه لا ينبُل مُريب،

قال الشاعر:

مـن عفَّ خفَّ علـى الصديق لقاؤُه　　　وأخـو الحوائـج وجهُـهُ مملـولُ
وأخوك مَـنْ وفَّـــرتَ مـا في كيسهِ　　　فـإذا عَبثـتَ بـه فأنـت ثَقـــيـلُ

سؤال الناس من غير اضطرار من خوارم المروءة

ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال؛ فقد أوهى مروءَتَه أي أضعفها، ومن دعاه الاضطرار لنائبة ألمت به، أو حادث هجم عليه إلى الاستعانة بما يتخلص به من وثائق نوائبه فلا لوم على مضطر.

فمن أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال، فلا عذر له في التعرض للمال.

فان تعذر عليه إصلاح ماله الا بمال يستعين به على نوائبه فان وجد قرضا مردوداً لم يأخذ صلةً وجوداً فهو أفضل؛ فان القرض مستسمح به في المروءات.

قال صلى الله عليه وسلم: "من أعياه رزق الله تعالى حلالاً، فليستدن على الله وعلى رسوله".

ولئن كان الدَّينُ رِقاً فهو أسهل من رقَّةِ الإفضال، وقال بعض الحكماء من قَبِل صلتك فقد باعك مروءَتَه.

ومن الأمور التي تصون للسائل أكثرَ مروءتَه الاقتصار على طلب الضرورة، والشكر عند الإجابة، والعذر عند المنع، والطلب ممن هو للسؤال أهل.

نشاط – ٦:

١. اضرب أمثلة لأشخاص عصاميين، اعتمدوا على أنفسهم في العمل الجاد الدؤوب، تمكنوا من بناء ثروة اقتصادية من الصفر.

٢. أعد النظر في طريقة صرفك وإدارتك للمال، ضع لنفسك وأسرتك خطة مالية، توفر لكم العيش الكريم وعدم الحاجة للناس.

٣. إذا كنت لا تملك حرفة؛ بادر بتعلم حرفة واشرع بالعمل الفوري وتوكل على الله فإنه هو الرزاق الكريم.

تقديم العون والمساعدة من شروط المروءة

تقديم العون والمساعدة للناس يمكن أن يقع على نوعين: المساعدة بالجاه، والعون والمساعدة في النكبات والكوارث ونوائب الدهر.

أما الإسعاف بالجاه فيكون بالسعي في حاجة أخيك والتوصية به عند أصدقائك، والشفاعة له عند أولي الأمر. وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ" (متفق عليه).

وعند الطبراني بإسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "... وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا

المَسْجِدِ (يَعْنِي مَسْجِدَ رسول الله في المَدِينَةِ المنورة) شَهْرًا"، وفي رواية أخرى عند الطبراني أيضاً: "وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ، أَثْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الأَقْدَامُ".

قـال أبو الحسن المـاوردي: "فأمـا الإسعاف بالجاه فقد يكـون من الأعلى قدراً والأنفذ أمراً وهو أرخص المكارم يمناً، وألطف الصنائع موقعاً، وربما كان أعظم من المال نفعاً، وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون، والحمى الذي يأوي إليه الخائفون؛ فان أوطأه[٧٠] اتسع بكثرة الأنصار والشيع، وان قبضه[٧١] انقطع بنفـور الغاشية[٧٢] والتبـع؛ فهو بالبذل ينمو ويزيد، وبالكـف ينقص ويبيد؛ فلا عـذر لصاحب الجـاه أن يبخل به؛ فيكون أسوأ حالا مـن البخل بالمال الذي قد يعده لنوائبه ويستبقـه لِلَذَّةِ، ويكنزه لذريته، وبضد ذلك مَنْ بَخِلَ بجاهه، لأنه قد أضاعه بالشح وبدده بالبخل، وحرم نفسه غنيمةَ مُكنَتِه وفرصةَ قدرتِه، فلم يعقبـه إلا ندماً على فائت، وأسفاً على ضائع، ومقتاً يستحكم في النفوس، وذماً قد ينتشر في الناس."[٧٣]

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى إليه أحسنهم صنيعا لعياله."[٧٤]

---

(٧٠) **أوطأه**: مهده وسهله صاحب الجاه وبذله للقاصي والداني.

(٧١) **قبضه**: ضيقه وأمسكه وبخل به

(٧٢) الغاشية والتبع أي الخدم والزوار والأصدقاء من الناس

(٧٣) أدب الدين والدنيا للماوردي

(٧٤) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق، والبيهقي في شعب الإيمان

وبذل الجاه للمحتاجين من كرم النفس وشكر النعمة. والبخل بالجاه من شح النفس وكفر النعمة فينبغي أن يبذل الجاه عن طيبة نفس؛ فمن نعم الله تعالى على العبد أن يجعله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر روى سَهْلِ بن سَعْد، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قَالَ: "عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، وَمِغْلاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، وَمِغْلاقًا لِلْخَيْرِ". أخرجه ابن ماجة والطبرانى.

ووممن نعم الله على المسلم أن يسخره الله تعالى لقضاء حوائج الناس فقد روي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلَّهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا عَنْهُمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ " أخرجه الطبراني، وابن عساكر.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عَظُمت نعمة الله تعالى عليـه، عَظُمت مؤونةُ النـاس عليـه."(٧٥) فمن لم يحتمل تلك المؤونة، عرَّض تلك النعمة للزوال.

ويجب أن يجانب الاستطالة على الناس والامتنان عليهم؛ فإنها من لؤم الطبع، وضيق الصدر، وفيها هدم الصنيع، وإحباط الشكر، وأن لا يقرن حسن صنيعه بتقريع، ولا توبيخ.

---

(٧٥) البيهقي في شعب الإيمان

قال النابغة الجعدي:

الم تعلـم أن الملامـةَ نفعُهـا قليـلٌ ... إذا مـــــا الشـيء ولَّى وأدبـرا

وأما العون والمساعدة في نوائب الدهر ومصائبه فلا يكفي فيها الإسعاف بالجاه أو الدعم المعنوي والمواساة بالعواطف والكلام، ولا بد من تقديم العون المادي. فقد تحدث في المجتمعات كوارث طبيعية مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات. وقد تحدث الحروب وينتج عنها اللجوء والتشرد. فيصبح فئات من المجتمع فاقدين لضروريات الحياة من المسكن والملبس والطعام. ففي مثل هذه الأحوال يجب على كل فرد من أفراد المجتمع تقديم كل ما في وسعه لإسعاف المتضررين. فإذا وجد الكريم شخصا مصابا بحوادث دهره، حثه الكرم وشكر النعم على تقديم العون والمساعدة بما استطاع إليه سبيلا.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

يـا لهـف نفسـي علـى مـالٍ أُفرِّقُهُ ... علـى المُقلّـينَ مِـن أهـل المُـروآتِ
إن اعتذاري إلى مَـنْ جاءَ يسألُني ... ما ليس عندي لَمِن إحدى المُصيباتِ

وإنّ قضاء الحوائج وإغاثة الملهوف من أحب الأعمال وأعلاها وأزكاها عند الله تعالى، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبُّ الناسِ إلى الله أنفعُهم للناس وأحبُّ الأعمالِ إلى الله سُرُورٌ تُدْخِلُه على مسلم أو تَكْشِفُ عنه كُرْبَةً أو تَقْضِي عنه دَيْناً أو تَطْرُدُ عنه

جُوعاً ولأَنْ أمشىَ مع أخي المسلمِ في حاجةٍ أحبُّ إلَيَّ من أن أعتكفَ في هذا المسجدِ شهرًا ومن كفَّ غضبَه سترَ اللّهُ عورتَه ومن كَظَمَ غَيْظَه ولو شاء أن يُمْضِيَه أَمْضاه ملأ اللّهُ قلبَه رِضًا يومَ القيامةِ ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجةٍ حتى تتهيأَ له أثبتَ اللّهُ قدمَه يومَ تَزِلُّ الأقدامُ وإنَّ سُوءَ الخُلُقِ ليُفْسِدِ العملَ كما يُفْسِدُ الخلُّ العسلَ" أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن أبى الدنيا في كتاب قضاء الحوائج.

قال الشاعر:

اقضِ الحوائجَ ما استطعتَ وَكُنْ لِهَمِّ أَخيكَ فارج
فَلَخيرَ أيام الفتى يومٌ قَضَى فيهِ الحوائج

فليعتبر المرء مما يشاهد من النكبات التي تحل بغيره من الناس، أنه قد تصيبه نوائبُ الدهر فلا يجد من يمد له يد العون. فليساعد المنكوبين عسى أن ييسر له الله من يساعده إذا أصابه ما أصابهم.

قال عدي بن حاتم:

كفى زاجراً للمرءِ أيامُ دهرِهِ تروحُ له بالواعظاتِ وتغتدي

وقد يكون الإسعاف وتقديم العون واجباً إذا كان من يحتاجه من الأهل والإخوان والجيران أما الأهل فلحق القربى وصلة الرحم، وتعاطف النسب، وأما الأخوان (أي الأصدقاء) فلمستحكم الود ومتأكد العهد.

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة، فقال صدق اللسان ومواساة الإخوان.

وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره؛ فمؤآزرته وإسعافه بالمال والمعونات العينية تصبح واجبة على جيرانه. وقد أوصى سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجار وشدد الوصية حتى قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه" (رواه البخاري) وعنه صلى الله عليه وسلم : "وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ" (رواه البخاري)

وعن أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن"، قيل: ومن يا رسول الله ؟ قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه" (متفق عليه)

قال الحكماء: من أجارَ جارَهُ، أعانَهُ اللهُ وأَجارَه.

قال الشاعر:

وللجـار حـقٌّ فاحتَـذِر مِـن أذاتـه … ومـا خيرُ جـارٍ لم يزل لـك مُؤذيا

ومن موجبات المروءة والكرم أن يتحمل الكريم أثقال هؤلاء الثلاثة: وهم الأهل، والإخوان أي الأصدقاء، والجيران؛ وأن يعينهم على نوائب الدهر. ولا فسحة لذي مروءة، أي لا عذر له إذا كان قادراً على المساعدة أن يكلهم إلى غيره، أو يلجئهم إلى سؤاله؛ فإنهم عيال كرمه، وأضياف مُروءتِه.

قال الشاعر:

حـق علـى السيـد المرجـوِّ نائِلُـهُ والمستجـارِ بـه في العـربِ والعجمِ

ألا يُنيـلُ الأقاصـي صَـوبَ راحتِـه[76] حتى يَخصَّ بـه الأدنى من الخدمِ

إن الفـــراتَ إذا جـاشت غواربُهُ[77] روى السـواحِل ثـم امتدَّ في الأممِ

وقد يكون الإسعاف والمساعدة مستحب ومتبرع به للبعداء والذين يدلون بنسب إذا كان فيما عدا الثلاثة المذكورين آنفا. فإن تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة وتكفل بنوائبهم؛ فقد زاد على شروط المروءة، وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم عليه، لأن التكفل بالجميع أمر متعذر، ما لم يلجأ إليه مضطر، فهذا تقتضيه المروءة أن يقدم له ما يستطيع من عون في هذه الحالة.

نشاط – ٧ :

١. اضرب أمثلة على مساعدة الناس ومؤآزرتهم في المحن والكوارث ونوائب الدهر من خبراتك الشخصية أومما قرأت عنه أو سمعته.

٢. ابحث في الحي أوالمنطقة التي تعيش فيها عن أُسَرٍ أو أشخاص يحتاجون لأي نوع من المساعدة ثم قدم لهم ما تستطيع من عون أو مؤازرة.

٣. لقد حلت بإخواننا بالشام والعراق واليمن وغيرها نكبات وويلات من الفتن والحروب المصطنعة التي يديرها أعداء الله وأعداء الإنسانية؛ فقدم ما استطعت من عون واجتهد في ذلك واسأل الله تفريج الكروب عن المكروبين.

---

(٧٦) **صوب راحته:** عطاء يده

(٧٧) **جاش:** زخر وامتد وفاض. الغوارب: الماء المرتفع

الصفح عن الزلات من شروط المروءة

قــال صلــى اللّه عليــه وسلــم: **"كل أبـن أدم خطـاء، وخـير الخطائـين التوابون"** [٧٨].

فمن رام صديقا مـبرأً من الخطأ والهفوات والزلل فقد رامَ شيئاً لا سبيل للعثور عليه قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقا لاعيب فيه. وإذا كان الأمر كذلــك فلا بد مــن الصفح والإغضاء عن الزلات. وقد روي عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: "إن اللّه أمرني بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض."[٧٩]

قال الإمام الشافعي رحمه اللّه:

لمـا عفـوتُ ولم أحقِـد علـى أحـدٍ ... أرَحـتُ نفسـي مِـن هَمِّ العـداوات

قال الشاعر

إذا كنـتَ فِي كلِّ الأُمـورِ معاتبـاً ... صديقَك لم تلـقَ الذي لا تعاتبُه

فعشْ واحداً أو صِلْ صديقَك إنَّه ... مقـارفُ ذنـبٍ مــرةً ومُجانبُـة

وَسُئِلَ الأَحْنَفُ بن قيس عن حق الصديق، فقال: حَقُّ الصَّدِيقِ أَنْ تَتَحَتَمِلَ مِنْهُ ثَلاثًا: ظُلْمُ الْغَضَبِ وَظُلْمُ الدَّالَّةِ وَظُلْمُ الْهَفْوَةِ، وَمَهْمَا اعْتَذَرَ إِلَيْكَ أَخُوكَ كَاذِبًا كَانَ أَوْ صَادِقًا فَاقْبَلْ عُذْرَهُ، وقد قيل: من استُرضِيَ ولم يَرْضَ فَهُوَ شيطان؛ فَالْمُؤْمِنُ سَرِيعُ الرِّضَاءِ.

---

(٧٨) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وقال صحيح الإسناد

(٧٩) أخرجه ابن مردويه

وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُبَالِغَ المرء فِي الْبَغْضَةِ عِنْدَ الْوَقِيعَةِ، بل ينبغي أَنْ يُبْقِيَ باب الصُّلحِ مُفْتوحا.

قَالَ تَعَالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ (الْمُمْتَحَنَةِ:٧)

وَقَالَ عمر رَضِيَ اللَّه عَنْهُ: لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا وَلَا بُغْضُكَ تَلَفًا. وَهُوَ أَنْ تُحِبَّ تَلَفَ صَاحِبِكَ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وسلم فِي جزءٍ من حديث طويل فِي فضل العفو وإصلاح ذات البين: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال النابغة الذبياني:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ   على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ

وقد يقول المرء يمكن العفو عن الهفوات والزلات الصغيرة؛ فكيف نعفو عن الزلات الكبيرة؟ وهل يطيق الإنسان العفو عن الزلات الكبيرة التي تصل أن تكون من الجرائم؟ يحتاج الأمر إلى شيء من التفصيل سنذكره في فصل العفو.

الفصل الخامس

العفو

من شيم أكابر الرجال

الفصل الخامس

العفو
من شيم أكابر الرجال

لقـد مـر معنـا تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.(٨٠) وقـول جبريـل لسيدنا رسـول الله: "إن الله يأمرك أن تصل مـن قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك"(٨١). ونستشهد بها الآن في موضـوع العفو. وفيها أمر من الله سبحانه وتعـالى لرسوله بالعفو عمن ظلمه، وفي سيرتـه العطرة شواهـد كثيرة على عفوه عن الذين ظلمـوه وحاربوه وقتلوا عمه ومثلوا به.

قـال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثٌ والذي نفسي بيده لو كنت حلافاً لحلفت عليهـن: ما نقص مالٌ من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجـه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر."(٨٢)

قـال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٨٣)

---

(٨٠) الأعراف-١٩٩

(٨١) اخرجه الهيثمي وابن أبي الدنيا

(٨٢) أخرجه الترمذي

(٨٣) البقرة – ٢١٩

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (٨٤)

يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه يحب المنفقين في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس. وفي الآية الكريمة شهادة من الله لهم بأنهم من المحسنين وأن لهم مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض، بل يطلب من عباده المسارعة إلى ذلك، لكن لمن أعدت هذه الخيرات؟! إنها أعدت للمتقين الذين تتوفر فيهم ثلاث صفات: الإنفاق في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس. فمن منا لا يطمح في مغفرة الله ومن منا لا يطمح إلى دخول الجنة؟! وإن الطريق إليها بالعفو وكظم الغيظ.

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٨٥)

هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ليس بالعفو فحسب، بل بأن يستغفر لهم أيضاً وفوق ذلك يشاورهم في الأمر. والخطاب الموجه للرسول موجه لأمته في الوقت نفسه.

---

(٨٤) آل عمران – ١٣٣، ١٣٤

(٨٥) آل عمران – ١٥٩

وفي السيرة النبوية الشريفة شواهد على عفوه صلى الله عليه وسلم، ففي معركة أحد قتلت قريش عمه حمزة وبقرت بطنه ومثلت به، وقتلت سبعين رجلاً من أصحابه وحاولوا قتله صلى الله عليه وسلم وكسروا ثناياه، وأدموا وجهه الشريف وهو ويمسك دمه الشريف من أن يقع على الأرض، حتى لا يعذبهم الله، وهو يدعو لهم؛ يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، انظر إلى رحمته وشفقته ورأفته في هذا الموقف العصيب، وحرصه على أن لا يسقط دمه الشريف على الأرض حتى لا يكون سبباً في عذابهم رأفة بهم، وحرصاً منه على إيصال الخير حتى لأعدائه رحمة بهم، في هذا الموقف الذي تذهل فيه العقول.

وفي فتح مكة يعفو عنهم جملة واحدة ويقول لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء، وعفا عن قاتل حمزة، و عفا عن هند التي بقرت بطن عمه حمزة وأخرجت كبده ولاكتها. هذا سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله قدوة عملية للإنسانية؛ فهلّا اقتدينا به واتبعنا سنته!

إن كثيرا من الناس الذين تمكنت منهم العصبية القبلية يعتبر العفو والتسامح وعدم الأخذ بالثأر مذلة وانتقاص من كبريائه ورجولته، ويصر على الأخذ بالثأر ويرى في ذلك العز له ولعائلته ولعشيرته. وقد يقتل من القبيلة الأخرى شخصاً بريئاً ليس له علاقة بالجريمة المرتكبة ويريد بذلك إغاظة الطرف الآخر فيكون قد ارتكب جرماً يدخله النار. ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٩٣

انظر أخي إلى هذا العذاب العظيم الذي ينتظر القاتل الخلود في جهنم وحلول غضب الله عليه واستحقاقه للعنة الله التي هي الطرد من الجنة والخلود في جهنم وما فيها من أنواع العذاب العظيم.

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر:

شرُّ المذاهبْ مذهب القبائلْ	**يقتلْ بريْ مِنْ غيرْذنبْ غافلْ**
قبيلُتهْ في الظلم لُهْ تجادلْ	**ما تنكر المنكرْ ولا تناضلْ**
ما يعرف الواجبْ ولا الفضائلْ	**فاحذر تجيهم أوْ لَهُم تُخالْ**

ولكن الحقيقة أن العفو هو سبب العز؛ فإنه ما ازداد عبدٌ بعفوٍ إلّا عزّا. كما جاء في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "قال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك أعز عليك؟

قال: "الذي إذا قدر عفا".

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: "إذا وقف العباد نادى منادٍ ليقم مَنْ أجرُه على الله فليدخل الجنة، قيل ومن ذا الذي له على الله أجر؟

قال: "العافون عن الناس، فيقوم كذا وكذا ألفاً فيدخلونها بغير حساب".[٨٦]

(٨٦) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق

فإن الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية كلها دالة على أنَّ العفو سببٌ للعِزِّ في الدنيا والآخرة. وفي سيرة الصحابة الكرام والتابعين وصلحاء الأمة وعلمائها وحكامها أمثلة من مواقف الرجولة التي تجلى فيها العفو بأبها صوره. ومنها:

بعض ما حدث في قصة الإفك

كان أحد الذين حكوا في قصة الإفك مسطح وهو من فقراء المسلمين المهاجرين الذين شهدوا غزوة بدر الكبرى، وهو من أقرباء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أبو بكر يصرف عليه ويتحمل مؤونته، وكان هذا الرجل من الذين قدحوا في عرض الشريفة العفيفة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، الذي قال عنها رسول الله خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء. وإن القدح في العرض أشد على الحر من وقع الحسام، بل ومن القتل، فأقسم أبو بكر رضي الله عنه أن لا يصرف عليه بعد اليوم، وقطع المصروف عنه، ولما أنزل الله براءتها؛ أقيم حد القذف على مسطح وعلى أمثاله ممن خاضوا في قضية الإفك، وبعد ذلك أُنزلت الآية الكريمة في حقه: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (٨٧)

فقال أبو بكر: بلى والله أحب أن يغفر الله لي، فعفا عنه وضاعف له العطاء.

(٨٧) النور – ٢٢

و منها أيضا قصة أسارى ابن الأشعث

أُتِـيَ عبد الملك بن مـروان[٨٨] بأسارى ابن الأشعـث[٨٩]، وكانوا قد حاربوا عبـد الملك بن مروان سنوات. فقال لرجا بن حيـوة[٩٠]، ما ترى؟ وكان رجا بن حيـوة من العلماء العاملين، قال: إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم.

ومنها أيضاً: أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر رضي الله عنه بصفين، فقيل له: اقطعه فإنه من أعدائنا، يعني بذلك أقم عليه حد السرقة. فقال: بل أستر عليه لعل الله يستر عليَّ يوم القيامة.

هذه مواقف الرجال الذين يخافون الله، عفوا عن مظلمتهم ابتغاء وجه الله، وابتغاء أن يغفر لهم الله تعالى يوم القيامة ويستر عليهم ويدخلهم الجنة.

وهذه قصص وحكايات واقعية جاءت معظمها عن كتاب إحياء علوم الدين/ الجزء الرابع للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله:

جارية أبي الدرداء

قالت جارية لأبي الدرداء: إني سممتك قبل سنة فما عمل فيك شيئاً، فقال: لم فعلت ذلك؟ قالت أردت الراحة منك، فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

---

(٨٨) عبد الملك بن مروان بن الحكم الخليفة الأموي

(٨٩) ابن الأشعث قاد تمرد ضد عبد الملك بن مروان

(٩٠) رجا بن حيوة من العلماء الصالحين وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز من بعده.

وقال الزهري متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر.

خادمة قيس بن عاصم

وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم؟ قال من قيس بن عاصم، قيل فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك.

قصة أخرى عن قيس بن عاصم

وفي موضع آخر سئل الأحنف بن قيس -وكان من أحلم العرب- ممن تعلمت الحلم؟ قال من قيس بن عاصم أيضاً، كنت عنده فجيئ بابنه مقتولاً وابن أخيه مقيداً، وقالوا: هذا ابن أخيك قتل ابنك. فقال يابن أخي قطعت رحمك وقتلت سندك....، ثم قال ادفنوا هذا، وفكوا قيد هذا، وسوقوا مئة ناقة لأمه دية لابنها. قال والله ما فكَّ حَبوَتَه.

غلام عون بن عبد الله

ومنها أيضاً: كان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك!؟ مولاك يعصي مولاه وأنت تعصي مولاك، فأغضبه يوماً فقال: إنما تريد أن أضربك، فتقتص مني يوم القيامة، اذهب فأنت حر.

جارية ميمون بن مهران

ومنها ايضاً: كان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته

بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون فقال: يا جارية أحرقتيني، قالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال: وما قال الله تعالى؟ قالت: قال: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفوت عنك، قالت: زد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال: انت حرة لوجه الله تعالى.

قصة ابن المنكدر

وقـال ابـن المنكدر: إن رجلاً مـن أصحاب رسول الله صلـى الله عليه وآله وسلـم ضرب عبـداً له فجعل العبد يقـول أسألك بالله أسألـك بوجه الله، فلم يعفـه، فسمـع رسول الله صلـى الله عليه وآله وسلم صياح العبـد فانطلق إليه، فلمـا رأى الرجلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمسك يده، فقال: رسول الله: "سألك بوجه الله فلم تُعْفِه، فلما رأيتني أمسكت يدك." قال الرجل: فإنه حـر لوجه الله يـا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلـم: "لو لم تفعل لسفعت وجهك النار."(٩١)

غلام أبي مسعود الأنصاري

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: بينا أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي يقول: "اعلم يا أبا مسعود" مرتين، فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلـم، فألقيت السوط من يدي، فقـال: "واللهِ للهُ أقدرُ عليكَ مِنْكَ

(٩١) ابن المبارك في الزهد

على هذا الغُلام"[٩٢] فقال أبو مسعود: هو حر لوجه اللّه.

وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: "إذا أتى أحدَكم خادمُهُ بطعامِهِ، فليجلسه وليأكل معه، فإن لم يفعل فليناوله لقمة."[٩٣]

الأخطاء الكبيرة

لقد رأينا قصصاً كانت الأخطاء فيها كبيرة أدت إلى القتل وموت الأبناء، ومع ذلك حصل فيها العفو، ومع هذا قد يتساءل المرءُ إذا وصلت الأخطاء إلى مستوى صعب مثل المشاجرة والضرب والقتل فكيف يعفى عنها؟

نقول في الجواب على هذا التساؤل إذا كانت الأخطاء من الكبائر فلا تعدوا كونها مقصودة أو غير مقصودة، ولكل منها أحكام وحالات خاصة بها تختلف عن غيرها من الحالات. وسوف نتاول كل منها بشيٍ من التفصيل فيما يلي.

الأخطاء غير المقصودة

ولا تخلو الأخطاء غير المقصودة أن تكون على إحدى الحالتين التاليتين:

١- الخطأ المحض: إذا وقعت الهفوة الكبيرة خطأً وزلةً زلَّ بها ساهياً، فالحرج فيها مرفوع والعتب موضوع. وبالتالي العفو فيها واجب أو مستحب.

---

(٩٢) رواه مسلم

(٩٣) متفق عليه

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

أُحـبُّ مِـنَ الإخـوانِ كُلَّ مُواتـي ... وكُلَّ غضيضِ الطَّرفِ عن عَثَراتي

قال أبو نواس:

لم أوآخـذك إذا جنيـتَ لأني ... واثـقٌ منـك بالإخـاءِ الصحيـحِ

فجميـلُ العــــدوِّ غـيرُ جميـلٍ ... وقبيـحُ الصــــديقِ غـيرُ قبيـحِ

٢- الخطأ شبه العمد: فان تشبَّهَ خطؤه بالعمد وسهوه بالقصد، وجب التَّثَبُّت ولا يجوز اللومُ بالظن والتوهُّم. فيصبحُ صاحبُ الحق ملوماً لعدم تثبُّته.

ففي مثل هذه الحالة التي يشتبه فيها الأمر بين الخطأ المحض وبين القصد والعمد؛ فينبغي فيه التروي في البحث والتدقيق والتأني في إصدار الأحكام وعدم الاستعجال في توجيه التهم واتخاذ القرارات. وقد قيل التثبُّت نصف العفو. فإذا بقي الأمر مبهما ولم يصل البحث إلى قرار واضح لا يعتريه الشك؛ فإن سلوك طريق العفو والصلح هو الأسلم والأحكم.

قال الشاعر:

فبعضُ الأمـــر تُصلحُـه ببعضٍ ... فـــإن الغـثَّ يحملُـــه السمـينُ

ولا تعجــل بظنِّك قبلَ خُبرٍ ... فعنـد الخُبرِ تنقطعُ الظنـونُ

فإذا لم يكن هناك دليل قطعي وبقي الأمر مبهماً فإن الحكمة تقتضي سلوك طريق الصلح وإن العفو هو الأسلم والأحكم.

الأخطاء المقصودة

وأما إذا كانت الهفوةُ من الكبائر، وكانت الجريمة متعمدة، فقد تكون واحدة من حالات أربع:

١ - أن يكون مرتكبها موتورا:

فإذا كان مرتكب الجريمة موتوراً؛ أي أن الطرف الذي وقعت عليه الجريمة كان قد قدم الإساءة والعدوان على مرتكب الجريمة، فاللائمة تقع على من اعتدى أولاً، وتعود اللائمة على البادئ بالعداوة، لأن المكافئ أعذر؛ أي يمكن أن يُلتَمَسُ العذر للمعتدى عليه أولاً، وإن كان الأليق به أن يصفح الصَّفح الجميل عمن بادره بالإساءة، وكان جديراً به أن يعفو ويصفح عن زلة صاحبه. أما وقد قابل الشر بالشر فقد أصبح الطرفان في الخطأ سواء، ولكن البادئ أظلم، ويقع عليه اللوم أكثر.

قال صلى الله عليه وسلم: " إياكم ومُشارَّة الناس فإنها تدفن الغُرَّة وتظهر العِرَّة[٩٤]. "[٩٥]

أي أن فتح باب المخاصمة ومقابلة الشَّرُّ بالشَّرِّ قد يؤدي إلى وقوع مشاجرات وجرائم قتل، وإظهار العيوب المستورة.

وقال بعض الحكماء: من فعل ما شاء لقي ما لم يشأ.

---

(٩٤) المُشارَّة: المخاصمة ومقابلة الشر بالشر. العِرَّة: الإثم والأذى والعيوب المستورة، الغرَّةُ من كل شيء هي أوله وأكرمه، وغُرَّةُ الرجل: ناصيته، وغُرَّةُ القوم: سيدهم وشريفهم.

(٩٥) أخرجه السيوطي

وقال الشاعر:

إذا وتـرت أمـرَءً فأحـذر عداوتَـه مَـن يـزرعُ الشـوكَ لا يحصد بـه عنبا[٩٦]

فإذا وَتَرْتَ إنساناً أي نقصته حقه من المال أو سفهته، ولم تحترمه، أو غمزت في عرضه أو نفسه أو عمله أو مكانته الاجتماعية أو الوظيفية؛ فقد زرعت في نفسه عداوة لك، فاحذره فإنه صاحب ثأر فقد لا يعفو عن زلتك وقد يسعى لمضرتك وإيذائك؛ فإن فعل ذلك وقابلك بما يسوؤك؛ فإن عليك الإغضاء والصفح، ولا تقابل الشر بالشر، فإن فعلت؛ فإن اللوم يقع عليك، وتصبح ملوماً؛ لأنك كنت البادئ بالشر أولاً، وكان الأولى أن تبادر بالاعتذار واسترضاء خصمك فورا قبل أن يبادر هو بالثأر منك.

ولذلك قال الحكماء: إن الإغضاء عن زلة الشخص الموتور واجبة؛ لأن البادئ بالعداوة قد رأى عقبي إساءته، فإن واصل الشرَّ من طرفه واصلَه الشرُّ من الطرف الأخر. وقد قيل باعتزالك الشر يعتزلك.

وقال بعض الحكماء: من كنت السبب لبلائه وجب عليك التلطف في علاجه من دائه، فإذا كنت أنت الذي بدأت بالمخاصمة من التعدي المعنوي

(٩٦) وترت الرجل أفزعته أو أدركته بمكروه. وتره حقه وماله نقصه إياه. وفي التنزيل العزيز: "ولن يتركم أعمالكم": لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً. وفي الحديث الشريف: "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله." أي نقص أهله وماله وبقي فرداً بعد أن كان كثيراً، وقيل هو من الوَتر الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سلب أو سبي، فشبه ما يلحق من فاتته صلاة العصر بمن قُتلَ حَميمُهُ أو سُلبَ أهله وماله. وتقول وَتَرتُه حَقّه إذا نقصتَه. (لسان العرب ج٩، ص٢٠٧-٢٠٨).

أو اللفظي أو الفعلي على الطرف الآخر فأنت المعتدي في هذه الحالة وانت الذي بدأ المخاصمة وفتحت باباً للفتنة فعليك إغلاق باب الفتنة قبل أن يباشر الطرف الآخر بالثأر لنفسه، فإذا لم تفعل وتلكأت في الاعتذار الذي يغلق باب الفتنة وينهي المخاصمة بينكما، وقام المعتدى عليه بالاعتداء عليك أو على من يخصك فإن عليك المبادرة إلى الصلح وعليك العفو عن ذنبه وإن لم تفعل فأنت الملام، ولا يجوز لك أن تقابل الشر بالشر؛ فإن الشر لا يطفئ الشر، كما أن النار لا تطفئ النار. وكما تُطفأ النار بالماء؛ فإن الشر يُطفأ بالعفو والصلح.

قال الشاعر البهاء زهير في طي صفحة المخاصمة وإقرار الصلح بين الفريقين المتخاصمين:

مِـنَ اليـــومِ تَعارَفـــنـا ... وَنطْــوي مــــا جَرى مِنّـا
فـــلا كــــانَ ولا صــــارَ ... ولا قُـلتُــــمْ ولا قُلْنــــا
وإنْ كــــانَ ولا بــــُدَّ ... مِــــنَ العَتْبِ فَبالحُسْـــنى
فَقَـدْ قيـــلَ لَنــــا عَنْكُم ... وَقَـــدْ قيـلَ لَـكُمْ عَنّـــا
كَفّى مـــا كــان مِنْ هَجْرٍ ... وقـَــد ذُقْتُــم وقد ذُقْنـــا
ومــــا أَحسَـــنَ أنْ نَرْجِــ ... ـعَ للأصــلِ كَمــا كُنَّــا

وقال أوس بن حجر:

إذا كنتَ لم تُعرِضْ عن الجهلِ والخنا ... أَصَبـتَ حليمـاً أو أَصابَـك جاهـلُ.

فإذا لم تعرض عن الجاهل وتغضي عن زلته؛ فقد تتفاقم الأمور وتؤدي بك إلى إلحاق الضرر بمن لا يستحقه، أو قد يؤدي ذلك إلى أن يعتدي عليك الجهال. فالأولى في هذه الحالة هو إغلاق باب الفتنه وإنهاء المشكلة عند هذا الحد وعدم مقابلة الشر بالشر.

فالإغضاء عن الزلة والتسامح مع الخصم والعفو عن المظلمة واجب في هذه الحالة على من بدأ المخاصمة، لأنه هو الذي فتح باب الفتنة فعليه أن يغلقه.

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر رحمه الله:

الحذرْ كل الحذرْ كل الحذرْ مِنْ معاداتِ الأماثلْ والنِّذالْ

إنّ فيها الشر كُلّهْ والضَّررْ وهموماً وغموماً لا تُزالْ

وبها كل الكروبْ والكدرْ وبها ذنبٌ وأوزارٌ ثقالْ

لا تَجيها لا تُقارِبْها وذرْ كُلَّ شيءٍ مِنهُ ما يُحْدِثْ جدالْ

خُذ نصيحهْ من نصيحٍ قد خَبَرْ وَعَرَفْ أنّ بها الداءَ العضالْ

واقرأ "الإحيا" وأمعِنْ في النظرْ في الذي فيهِ من أعمالٍ عوالْ

٢-أن يكون مرتكبها عدوا

فإذا كان مرتكبُ الجريمة عدواً وقد استحكمت الشحناء في قلبه؛ فهو متربص بإيصال الضرر إليك، فالبعد عنه والحذر أسلم، فان شرَّهُ سيحيطُ به، وإن مكرَهُ عائدٌ عليه،

وقد قالت الحكماء: لا تعرضن لعدوك في دولته، فإذا زالت كفيتَ شرَّه،

فإذا كان الشخص المعتدي مدعوم من الدولة أو نظام الحكم القائم فإن الحذر منه واجب والبعد عنه أسلم؛ لأنك إن قابلته بالشر سيقابلك بشر أكبر منه وهكذا يمكن أن تتفاقم الأُمور وتصل إلى ما لا يحمد عقباه؛ فابتعد عنه ووكله إلى فاطر السماوات والأرض فإن شره سيحيط به، ومكره سيعود عليه، وسيكفيك الله شره. فإن كان جار لك فارحل عن جيرته، وإن كان شريكاً فاترك شراكته، فإن الله سيغنيك عنه.

وقال لقمان لابنه: كَذَبَ مَن قال إنَّ الشرَّ بالشرِّ يُطفأ؛ فإن كان صادقاً فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ، إحداهما الأخرى ؟ وإنما يُطفِئُ الخيرُ الشرَّ كما يطفئُ الماءُ النارَ.

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: كفاك من الله نصراً، أن ترى عدوَّك يعصي اللهَ فيك.

وقال الحكماء: بالسيرة العادلة يُقهرُ المُعادي.

قال البحتري:

وأُقسِـم لا أُجازيـك بالشـرِّ مِثلَـه　　　كفـى بالـذي جازيتَنـي لَـكَ جازيا

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

إذا سبَّنـي نـذلٌ تزايـدتُ رِفعَـةً　　　ومـا العيـبُ إلا أن أكـون مُسابِـبُـهْ

ولـو لم تكـن نفسـي علـيَّ عزيـزةً   لَمَكَّنتُهـــا مِـن كُلِّ نَـذلِ تُحارِبُـهْ

وقال الشافعي أيضاً:

يُخاطِبُنـي السَّفيـهُ بِكُلِّ قُبحٍ   فأكـرَهُ أن أكـــونَ لَـهُ مُجيبـــا

يَزيـــدُ سَفـاهَـةً فـأزيـدُ حِلْمـاً   كعـودٍ زادَهُ الإحـــراقُ طيبـا

٣- إن يكون مرتكبها لئيم الطبع

فإذا كان مرتكب الجريمة لئيم الطبع خبيث الأصل؛ فهو لايستقبح الشر، ولا يكف عن المكروه، فلا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض، ولا خلاص منه إلا بالصفح والإعراض، فانه كالسبع الضاري في سواح الغنم، وكالنار في هشيم يابس، لا يقربها إلا تالف، ولا يدنو منها إلا هالك.

٤- الصديق الجافي والأخ العقوق:

أن يكون مرتكبها صديقاً قد استحدث جفوةً وتغيُّرا، أو أخاً قد استجد جفوةً وتنكرا، فأبدى صفحةَ عُقوقِه، وترك حقوق الصداقة والأُخوة، وعدل عن برِّ الإخاء إلى جفوة الأعداء، فإن هذا الوضع قد يعرض في المودات المستقيمة، كما تعرض الأمراض في الأجسام السليمة، فإن عُولِجَت أَقْلَعَت، وإن أُهمِلَت أَسقَمَت ثم أَتْلَفَت، ولذلك قال الحكماء: دواءُ المَوَدّةِ كثرةُ التعاهد.

فإذا كان هذا الصديق قد أعرض عنك فبادره أنت بالتحية، وإن قطع زيارتك فبادر بزيارته، وبادره بإرسال هدية أومهاتفة أو تهنئة بإحدى مناسبات الأفراح أو الأعياد، ولا تنتظر منه مبادلة الهدية بالهدية ولا الزيارة بالزيارة

ولا التهنئة بالتهنئة؛ فإن كثرة تعاهد المودة لابد ستؤدي إلى إزالة الجفوة. والله الموفق للخيرات.

وقال الشاعر:

أقــل ذا الـودِّ عثرتَـــهُ وقِفْـهُ   على سنن الطريـقِ المستقيمـةْ
ولا تســرع بمعتبـــةٍ إليــهِ   فقـــد يَهفـــو ونيَّتُـه سليمـةْ

فإن الصديق أو الأخ أو كلَّ شخص بينك وبينه مودة قد يخطئ وقد يقصر بالقيام بحقوق المودة والأُخوة والصداقة وقد يكون هذا التقصير عن جهل أو نسيان أو ضيق ذات اليد أو ظروف عائلية أو اجتماعية خاصة تجهلها أنت ولا يسعه هو أن يُعبِّر عنها؛ وقد يكون في كلِّ ذلك حسن النية، سليم الصدر؛ فإن عليك في هذه الحالة إقالة عثرته والتغاضي عن زلته، والصفح عن هفوته، وإعادته بكل ملاطفة إلى سنن الطريق المستقيمة. كما عليك أن لا تسرع بالمعاتبة التي تثير الجفوة وتتجاهل المودة القديمة بينكما.

قــال صلــى الله عليــه وسلــم: "أوصاني رَبِّـي بسبـع: الإخلاص في السرِّ والعلانيــة، وأن أَعفو عَمَّن ظَلَمَني، وأُعطي مَنْ حَرَمَني، وأَصِلُ مَنْ قَطَعَني، وأن يكونَ صَمْتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة." (٩٧)

وقال لقمان لابنه: يا بُني لا تترك صديقك الأول، فلا يطمئن إليك الثاني، يا بُني اتخذ ألف صديق والألف قليل و لا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير،

---

(٩٧) أخرجه ابن عبد ربه في العقد الفريد

وقيل للمهلب بن أبي صفرة ماتقول في العفو والعقوبة ؟ قال هما بمنزلة الجود و البخل، فتمسك بأيهما شئت. أي أن العفو بمنزلة الجود والعقوبة بمنزلة البخل. فإذا كنت جواداً تمسك بالعفو، وإذا كنت بخيلاً تمسك بالعقوبة. فاختر لنفسك الجود أو البخل.

قال الشاعر:

إذا أَنتَ لم تَترك أخاكَ وزَلةً   إذا زَلَّهـــا أو شكتُما تَتفرَّقا

ومن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه.

قال المتنبي:

فإن الجرحَ ينفرُ بعـــد حينٍ   إذا كـــان البنـــاءُ على فسادِ

وإن أظهر الأخُ المخطئُ ندماً قُبِلَ ندمُه، فالنَّدم توبةٌ، والخجل إنابة، ولا ذنبَ لتائب، ولا لومَ على منيب، ولا يُكلَّف عذراً عمّا سلف.

قال على بن أبي طالب رضي الله عنه: كفى بما يعتذر منه تهمة.

وقال الحكماء: شفيعُ المذنبِ إقرارُه، وتوبَتُه اعتذارُه.

فمن جاءك نادماً معترفاً بذنبه فقد وجب عليك العفو عنه. ومن جاءك معتذراً عن ذنبه، فقد تاب عنه، ووجب عليك العفو عنه.

وقال بعض الحكماء: مَنْ لَم يَقبل التوبَةَ عَظُمَت خطيئتُه، وَمَنْ لَم يُحسِن إلى التائبِ، قَبُحَت إساءَتُه.

فإذا جاءك الأخ أو الصديق معتذراً عن هفوته وجب عليك قبول عذره ووجب عليك إكرامه والإحسان إليه؛ وإن لم تفعل فإنك تكون قد ارتكبت خطيئة وأسأت إساءة قبيحة.

قال الشاعر:

اقْبَل معاذيرَ مَن يأتيكَ مُعتَذِراً — إن بَرَّ عندك فيما قالَ أو فَجَرا
فقد أطاعَك مَن يُرضيكَ ظاهِرُهُ — وقد أَجَلَّكَ مَن يَعصيكَ مُستَتِرا

فإن جاءك معتذراً فاقبل عذره مهما كان ولا تفتش ولا تدقق وَكِلْ أمرَه إلى الله؛ فإنه يعلم السر وأخفى. فمن أرضاك ظاهره فقد أطاعك، ومن عصاك مستتراً فقد احترمك واستحيا منك.

قال الحكماء: من استرضي ولم يرض فهو شيطان، ومن استغضب ولم يغضب فهو حمار.

إصرار الصديق المخطئ

وإذا أصرَّ الصديقُ المخطئُ على زلَّتِه، ولم يتداركها بعذره وتنصله، ولم يمحها بتوبتِه وإنابتِه، فحالُه لا ينفكُّ عن أمور ثلاثة:

أحدهما: أن يكونَ قد كفَّ عن سيء عملِه، وأقلع عن سالف غلطه، فالكفُّ إحدى التوبتين، والإقلاع أحد العذرين، فكن أنت المعتذرُ عنه بصفحك، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المُحِسنُ على المسيءِ أمير.

والثاني: أن يكونَ قد وقف على ما أسلف من غَلطِه؛ غير تارك ولا متجاوز؛ فوقوف المرض أحد البرئين، وكفه عن الزيادة إحدى الحسنيين، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه، فعول به على صلاح شطره الآخر، وإياك وإرجاؤه؛ فإن الإرجاء يفسد شطر صلاحه، والتلافي يصلح شطر فساده.

والثالث: أن يتجاوز مع الأوقات، فيزيد فيه على مرور الأيام، فهذا هو الداءُ العضال؛ فإن أَمْكنَ استدراكُه وتأتى إصلاحُه بالترغيب والعقاب، وإلا فآخرُ الدواءِ الكي، ولا لائمةَ عليه؛ فإن المقيمَ الشقاقِ مصروعٌ، وقد قيل: مَن سَلَّ سيفَ البغي أغمده الله في رأسه.

نشاط- ٨:

١. اذكر حوادث وقع فيها العفو عن الزلات وبين ما نتج عنها من إغلاق لباب الشر، وحلول الصلح والسلام محل العداوة والخصام.

٢. اذكر حوادث لم يتم فيها العفو والصفح عن الزلات، وبين كيف تفاقمت الأحداث وقادت إلى المشاجرة وإلى اتساع باب الشر. قارن بين نتائج الأحداث في الحالتينن، وبين مزايا العفو والصفح عن الزلات.

٣. بادر فوراً بزيارة صديقك أو أُمك أو أبيك أو أخيك، الذي بينك وبينه جفوة، ولا تنس أن تتحفه بهدية جميلة أو تحفة نادرة، ولا تؤجل فإن خير البر عاجله.

المسامحة في الحقوق من شيم الكرماء

المسامحة في الحقوق من شـروط المروءة، وهي أولى من استيفاء الحقوق؛ لأن الاستيفاءَ موحشٌ[٩٨]، والاستقصاءَ مُنَفرٌ، وقد جُبلَت النفوسُ على بغض من شاحَّهـا ونازعها، وعلى محبةِ مَن ياسرَها وسامَحها، فـكانَ أَلْيَقُ لأمورِ المُروءَةِ تَألُّفُ النُّفوسِ بالمياسرَةِ والمُسامَحة. لأن التدقيق على استيفاء الحقوق يؤدي إلى التباغض وانعدام المودة وحلول القطيعة بين طرفي النزاع.

قال الحكماء: مَنْ عاشَرَ إخوانَهُ بالمسامَحةِ دامت لَهُ مَوَدَّتُهم.

قال الشاعر:

المــــرءُ بَعْدَ المـوتِ أُحـدوثـةٌ	**يفنـى وتبقـى مِنْـهُ آثــــارُهُ**
فأحسَنُ الحـــالات حـــالُ امـرِءٍ	**تَطيـبُ بَعـدَ المـــوتِ أخبـارُهُ**

وقال اسحق بن إبراهيم الموصلي:

يبقـى الثنـاءُ وتذهـبُ الأمــــوالُ	**ولـكلِّ دَهـر دولـةٌ ورجــــالُ**
مـا نـالَ مَحْمَـدةَ الرجـالِ وشكرِهم	**إلّا الجـوادُ بمالِـه المِفضــــالُ**
لا ترضَ مِـن رجـلٍ حـلاوةَ قولِـهِ	**حتـى يُصـدِّقَ مـا يقـولُ فِعـالُ**

---

(٩٨) أي ينشر الوحشة وعدم الألفة بين الطرفين.

الفصل السادس

الشهامةُ رمزُ الرُّجولةِ

الفصل السادس

الشهامةُ رمزُ الرُّجولةِ

المعنى اللغوي للشهامة

جاء في لسان العرب لابن منظور أنَّ الشهمَ هو الذكيُّ الفؤاد المُتَوقِّد، الجَلْد، والجمع شِهام. ويقال شَهُمَ الرجلُ شَهامَةً إذا كان ذكياً فهوَ شَهْمٌ أي جَلْدٌ. وفي الحديث كان شهماً نافذاً في الأُمور ماضياً. والشَّهْمُ السيدُ النَّجدُ النَّافِذُ في الأُمور(٩٩).

وجاء في المعجم الوسيط: الشهامة عِزَّةُ النَّفْسِ، وحرصُها على مباشرةِ أُمورٍ عظيمةٍ تستَتْبِعُ الذِّكرَ الجميلَ. والشَّهْمُ الذكيُّ، والسيِّد السديد الرأي، والصبور على القيام بما حُمِّل، والجمع شِهامٌ وشُهوم(١٠٠).

المعنى الاصطلاحي للشهامة:

الشهامة عزةُ النَّفس وحرصها على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل. ومن متطلبات الشهامة الهمةُ العاليةُ، والنَّجدَةُ، والشجاعةُ، والتَّرَفُّعُ عن دنايا الأُمور، والتَّوْقُ الى المعالي، والنَّخْوةُ، وتقديمُ العونِ للضعفاء، وإغاثةُ الملهوف، والعطفُ على المساكين، ومواساةُ الناس في أفراحهم، وأحزانهم، ورفعُ الضيم عن المظلومين.

---

(٩٩) لسان العرب، المجلد الخامس، ص٢٢٢

(١٠٠) المعجم الوسيط، ص٤٩٨

الرجل الشهم :

لا يكون الرجل شهماً؛ حتى يكون ذا همةٍ عالية، ونفس أبيَّة ترفض الظلم، وشجاعة في قول الحق، ونجدة المظلومين، وإغاثة الملهوفين، وأن يضحي بالجهد والمال في سبيل الحفاظ على الفضائل ومكارم الأخلاق، ويتحمل المصاعب والمشاق في سبيل نجدة المحتاجين وإغاثة المستضعفين.

الرجل الشهم يحمي من التجأ إليه، ويجير من استجار به، ويدافع عنه بجهده وماله. والرجل الشهم ليس جبانا ولا خوانا ولا كذابا، لا تغريه المطامع المادية بل يترفع عنها ويؤثر على نفسه ولوكان به خصاصة.

أمثلة على الشهامة :

الشهامة من صفات الأنبياء والصالحين وعظماء الرجال عبر التاريخ. ولنضرب بعض الأمثلة التي تشكل قبسات من السيرة العطرة لنبي الرحمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الشجاعة النادرة من مقومات الشهامة :

ففي غزوة حنين عندما هجم المشركون ليلا على جيش المسلمين وانهالوا عليهم من جميع الجهات وأمطروهم بالنبل والسهام واشتد الخطب وبلغت القلوب الحناجر، وفر الشجعان من هول المفاجأة، ولم يثبت حوله صلى الله عليه وسلم إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. وقف صلى الله عليه وسلم معلناً عن نفسه صارخاً بأعلى صوته "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"

أنظر إلى موقف رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ترى عزةَ النَّفسِ، والهمةَ العاليةَ، والنَّجدَةَ، والشجاعةَ والنَّخْوةَ والصبرَ والجَلدَ والذكاءَ النَّافِذ في فهم الأُمور وإدراكِ ما تؤُول إليه الأحداث في قلب المعركة. وثَبَتَ عليه الصلاة والسلام في مواجهة هجوم الأعداء ثباتاً لم يتزعزع، وظل يقاتل ويدافع حتى أفاقَ الصحابةُ رضي اللّه عنهم من هول المفاجأة، واسترجع الشجعانُ عقولَهم، وكروا راجعين إليه، والتفوا حوله حتى تحولت الهزيمةُ إلى نصر.

في مثل هذا الموقف قد ينهزم بعضُ القادة ويتذرعُ بدعوى الحفاظ على حياة القائد أو بدعوى الحفاظ على معنويات الجند، أو بدعوى إعادة تجميع الجيش ومعاودة المعركة. ولكنَّه صلى اللّه عليه وسلم لم يفعل أياً من ذلك، بل وقف موقف الشهامة وصمد صمودا لا يطيقه صناديد الشجعان مِنَ الرجال. وأعلن عن نفسه بكل إباءٍ وعزةٍ ونخوة؛ فَحوَّل الهزيمة إلى نصر.

النَّجدة وإغاثة الملهوف من مقومات الشهامة :

وقد فزع أهل المدينة ذات ليلة وانطلق الناس قِبَل الصوت وقد فوجئوا بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وقد سبقهم إلى مكان الصوت المستغيث واستقبلهم وهو على فرس لأبي طلحة عُريي ليس عليها سرج وفي عنقه سيف. ويقول لهم لن تراعوا، لن تراعوا، لاحظ السرعة في النجدة والإغاثة والعون فلم ينتظر حتى يبحث عن سرج ويضعه على ظهر الفرس ويربطه ويشد الأحزمة لأن الموقف لا يحتمل إضاعة الوقت فآثر أن يركب الفرس عُرّياً، رغم ما في ذلك من صعوبة وخطورة على الفارس. لأن الموقف لا يحتمل إضاعة الوقت؛ فهناك

صوتٌ مستغيثٌ ملهوفٌ يحتاج إلى من ينقذه ويمدّ له يد العون بأقصى سرعة ممكنة، وإن الدقائق قد تفرق كثيرا، ويقع المحذور، وتضيع فرصة الإغاثة وإنقاذ الملهوف من الخطر. إذ يستدعي الموقف سرعة الاستجابة، فلم يكن في المدينة أسرع منه في النجدة والإغاثة وهذه قمة الشهامة.

النجدة وإغاثة الضعفاء:

وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام عندما وردَ ماء مدين وجد الرُّعاة يسقون أغنامهم ووجد من دونهم امرأتين تذودان أغنامهما عن الماء بانتظار أن يفرغ الرعاة من سقي أغنامهم، ثم بعد ذلك يتقدما لسقي أغنامهما، فحركته النخوة لمساعدة الضعفاء؛ فتقدم وسقى لهما أغنامهما، وخلصهما من الانتظار الطويل وسط ازدحام الرعاة و ازدحام أغنامهم، دون طلب منهما أو استغاثة، وإنما نجدةً وشهامةً وإحساساً منه بما يجب على الرجل الشهمِ من النخوةِ، وتقديم العون للمحتاجين في مثل هذه المواقف حتى لو لم يطلبوا العون؛ ولكن الرجل الشهم يدرك، برؤيته الثاقبة وهمته العالية وحكمته، يدركُ حاجةَ الضعفاء والمحتاجين للعون والمساعدة؛ ويبادر تلقائياً بتقديم العون، لأنه يرى أن إغاثةَ المحتاجين والضعفاء واجبٌ على مَنْ عنده المُكْنَةُ والاستطاعة شكراً للنعمة. في مثل هذه المواقف تظهر شهامة الرجال.

قصة حذيفة العدوي في الإيثار والتضحية:

إن تصفح سيرة الصحابة والتابعين يكشف عن الكثير من الأحداث والمواقف التي تتجلى فيها الشهامة والرجولة والأخلاق الكريمة. ومن ذلك

ما روي عن حذيفة العدوي أنه انطلق في معركة اليرموك يبحث عن ابن عمه بين القتلى والجرحى ومعه ماء يريد أن يسقيه، فلما وصله وقدم إليه الماء ليشرب سمع رجلا يئن من شدة العطش فأشار إليه، أن اذهب إليه واسقه أولا، قال فجئته فإذا هو هشام بن العاص، فقلت أسقيك، فأشار أن نعم فسمع رجلاً آخر يتأوه ويئن من العطش والجراح، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فلما جئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلي هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات، رحمهم الله جميعاً وأجزل ثوابهم في جنات النعيم، انظر إلى التضحية والإيثار وإغاثة الملهوف، برغم شدة الحاجة وضيق الوقت، هذه مواقف الرجولة التي تستدعي الصبر، وكرم النفس، والترفع عن الأنانية البغيضة، وعن الأغراض الشخصية في سبيل تحقيق المصلحة العامة والحفاظ على قيم الوفاء والسخاء وإغاثة الملهوف وتفريج كرب المكروبين. في مثل هذه المواقف الحرجة تظهر شهامة الرجال. إنها مواقف عظيمة لا يطيقها إلّا عظماء الرجال.

قصة المعتصم في النخوة والنجدة ورفع الظلم:

إن مواقف الشهامة لا تقتصر على جيل الصحابة والتابعين، فها هو الخليفة العباسي المعتصم بالله يستجيب لاستغاثة امرأة مسلمة في عمورية(١٠١) عندما أراد أحد علوج الروم أن يعتدي عليها فصاحت وامعتصماه، فقال لها ذلك العلج ضاحكاً ومستخفاً بشأنها وبمن استغاثت به: وهل سيأتيك المعتصم على

(١٠١) عمورية: بلدة في تركيا قرب مدينة أنقرة

حصـــان أبلـــق؟ وعندما وصل الخـــبر للمعتصم بالله الخليفـــة العباسي وهو في بغداد فقال: لبيك وقام من فوره وأمر بتجهيز جيش من أثنى عشر ألف فارس كل منهـم على حصان أبلق. وهزم الروم وفتح عمورية وأقتص لتلك المرأة وثأر لها ممن اعتدى عليها.

الستر على الناس من مقومات الشهامة

ومن المواقف التي تتجلى فيها الشهامة ومواقف الرجولة: ما روي عن أحمد مهدي وهو من رجالات بغداد المعروفين بالخير أنه جاءته امرأة ليلا وذكرت له أنها من بنات العائلات في بغداد وطلبت منه أن يستر عليها. وسألها ما محنتك؟ فقالت: أكرهت على نفسي وأنا الآن حبلى، وذكرتُ لكلِّ مَن أطلعَ على حالتي أنَّك زوجي، وأني حامل منك، لما توقعته منك من عمل الخير والمعروف، فلا تفضحني واسترني سترك الله.

قال: سمعتُ كلامها وسكتُ عنها، ومضت إلى حال سبيلها، وبعد أشهر إذا بإمام المسجد وبعض الجيران يهنئونني ويباركون لي بالمولود، فأظهرتُ لهم الفرح، ودخلت حجرتي، وأتيت بمائة درهم وأعطيتها للأمام، وقلت له: أنت تعرف أنني قد طلقت تلك المرأة، غير أنني ملزم بالنفقة على المولود، وأرجوك أن تعطيها للأم لكي تصرف على ابنها، وسوف أتكفل بدفع هذا المبلغ في مطلع كل شهر، وأنتم شهود على ذلك. وبعد ما يقرب من عامين جاء إمام المسجد ومن معه يعزونني بوفاة المولود، وأظهرت لهم التسليم بقضاء الله وقدره، وقد تملكني حزنٌ عظيمٌ على تلك المرأة، وفي ليلة من الليالي إذا بباب داري يقرع،

وإذا بتلك المرأة ومعها صرة ممتلئة بالدراهم، وقالت وهي تبكي هذه الدراهم التي بعثتها لي مع إمام المسجد سترك الله كما سترتني، ومضت إلى حال سبيلها، وحاولت إرجاع الصرة لها ولكن دون جدوى.

مواقف معاصرة تجلت فيها الشهامة:

أحببت أن أذكر هذه المواقف لأدلل على أن المروءة والشهامة وأخلاق الرجولة ما زالت موجودة في الأمة حتى في هذا العصر الذي تمر فيه الأمة بفترة من فترات الضعف العسكري والانحطاط الأخلاقي والاستكانة والهزائم المتكررة. وسيخرج من ركام هذه الهزائم المتكررة أبطال خبأهم الله للنهوض بالأمة وإعلاء كلمة الله.

الموقف الأول: إغاثة شاب ملقى على قارعة الطريق

حدث هذا الموقف من شابين تربطني بهما صلة قرابة في عام ٢٠١٥م، كنت أتوقع وصولهما إلى بيتنا في الرياض حوالي الساعة الثانية عشرة مساءا ولكنهما تأخرا ولم يصلا إلا قريبا من أذان الفجر. وعند استفساري عن سبب تأخرهما، قالا: لقد استغاث بنا شاب رثُّ الهيئة، غريب المظهر، متبعثر الكلام والإشارات، ملقى أمام إحدى المحال التجارية في مدينة الرياض، كان الناس يتحاشونه ظناً منهم أنه متسولٌ أو تحت تأثير مخدِّرٍ أو مُسْكِرٍ، فلا يلقوا له بالاً ولايمنحوه فرصةً ليشرح مطلبه أو يعبر عن حاجته، ولم يكن حوله سوى بعض من الهنود الذين لا يفهمونه ولا يفهمهم، فنادى مستغيثاً بنا، فلم نجد بداً من الإجابة، وكان الشاب في وضع صحي سيىء، ولما حاورناه وأمعنا النظر

في حالته رأينا مظاهر تقهقرٍ صحي سريع عنده، فأخذناه إلى قسم الطوارئ في المستشفى الوطني بالرياض، وكان يعاني من ارتفاع كبير في ضغط الدم وانهيار صحي شامل، فقدموا له العلاج والإسعافات اللازمة، ومكثنا عنده ساعتين حتى استعاد قواه العقلية والجسدية، استفسرنا منه عن حالته فإذا هو شاب سعودي موظف في أحد البنوك وقد كان في رحلة إلى مصر وعاد منها تلك الليلة، وقاد سيارته التي كانت في مرآب (كراج) السيارات في المطار، وقال أنه مضى عليه ليلتان في مصر لم ينم فيهما، وأنه فقد المفتاح الإلكتروني للبوابة الخارجية لمنزله في الرياض، وأنه حاول الاتصال عبر الجوال بأمه وأبيه ولكن دون جدوى لأن الساعة بعد الواحدة من منتصف الليل، وأصبح لا يقوى على المشي أو قيادة سيارته، وأنه استجار بكثير من المارة، ولم يستجيبوا له ظناً منهم أنه سكران أو مدمن مخدرات، وذهب للطوارئ في إحدى المستشفيات القريبة فلم يستقبلوه لظنهم فيه نفس الأمر أيضاً لمظهره الرث وكلامه المتبعثر.

قالا: ولما تحققنا من حاله، حملناه إلى منزله، وحاولنا الاتصال مع أهله ولكن دون جدوى، فاستفسرنا منه أين ضاع المفتاح وكيف ضاع، وعرفنا منه أن من المحتمل أنه سقط منه في السيارة، ففتشنا السيارة تفتيشا دقيقا، فوجدناه قد سقط في شق بجانب كرسي السائق، ففتح البوابة وأدخل سيارته، وأخبر والده، وجاء والده وشكرهما على ما قدماه لولده وأكبر هذه الروح منهما التي تجلت فيها صفة النجدة والنخوة وإغاثة الملهوف، في وقت أصبحت فيه هذه الصفات نادرة في جيل الشباب هذه الأيام. وقد أُعجبتُ بصنيعهما وأثنيتُ عليهما وأخبرتهما أنني سأضع قصتهما في هذا الكتاب، فسرّا بذلك.

قال الشاعر:

مـن ذا سيعطـي في الشهامـةِ قـدوةً إن لم أكـن عونـا لحاجـة جـاري ؟

الموقف الثاني

حدث هذا الموقف مع أشخاص أعرفهم، وقد تناقلت خبره محطات التلفزة والإذاعة ووسائل الإعلام الأردنية وهو من المواقف المعاصرة التي تتجلى فيها النجدة والنخوة والشهامة حدث ذلك عام ٢٠١٤م. عندما اتصل صديق من الأردن في ساعة متأخرة من الليل بصديق له يعمل في شركة اتصالات في مدينة أبها جنوب المملكة العربية السعودية، يخبره بأن السيارة التي تقل والده وأخيه تدهورت وهما في طريقهما إلى الأردن في موقع في جنوب مدينة حفر الباطن بمسافة ١٥٠ كم تقريباً، وأنهما أصيبا إصابات بالغة، وأن والده في حالة خطرة. وحيث أنه لا يملك تأشيرة دخول إلى السعودية لايملك وسيلة لإغاثتهم. فانتخى له صاحبه، وقال له: أبشر وعين خيراً. وخرج إلى مطار أبها وحجز في أول طائرة متجهة إلى الرياض، واستأجر سيارة كبيرة (التي تسمى جيمس) وسافر بها إلى حفر الباطن ثم إلى موقع الحادث حيث وجدهما وقد أجريت لهما الاسعافات الأولية، فحمَّل متاعهما في السيارة المستأجرة، ودفع الأجرة لسائق السيارة ليوصلهما إلى بيتهما في الأردن. ثم استأجر ناقلة لشحن سيارتهما التي تدهورت، وشحنها إلى الرياض ليجري إصلاحها، وصل إلى الرياض في مساء اليوم التالي، وحجز في أقرب رحلة متوجهة إلى أبها وعاد إلى عمله الذي تغيب عنه دون استئذان نظرا لظروف الحادث.

يتجلى في هذه الواقعة حس النخوة والنجدة وإغاثة الملهوف والوفاءُ بحق الأخوة والصداقة، والتضحية بالجهد والمال والوقت، والاستجابة الفورية وسرعة الإغاثة التي تنم عن تحمل المسئولية و العزم والحزم والمبادرة بالفعل الفوري الذي يشعر بأهمية الوقت وحساسية الموقف؛ ينم هذا العمل عن همة عالية، ونفس شريفة تتطلع إلى معالي الأمور، وتترفع عن سفاسفها، وتتحمل المشاق، وتضحي بالجهد والمال والوقت في سبيل نجدة الملهوف و إغاثته؛ وكل هذه الأمور من مقومات الشهامة والمُروءة. لقد أحسستُ من هذه الواقعة أن الأمة بخير وأن المروءة لم تمت ولن تموت، وأن الشهامة لم تمت ولن تموت في هذه الأمة المباركة التي كلفها الله تعالى بحمل رسالة الرحمة والهداية للعالمين؛ رسالة الإسلام الخالدة.

هذه نماذج مشرقة من الشباب الطيب في هذا العصر الرديء الذي سعت فيه قوى الشر العالمية العابرة للقارات بكل ما تملكه من وسائل أن تمحو من نفوس شبابنا قيم الرجولة والفضيلة ومكارم الأخلاق، وأن تَستَلَّ من نفوسهم وعقولهم وقلوبهم النخوة والنجدة والغيرة والحمية، وأن تزرع مكانها قيم الخلاعة والنذالة، وأن تسقطهم في مستنقعات الرذيلة والفساد والشهوات الحيوانية الهابطة تحت شعار الحرية والديموقراطية وحقوق المرأة وحقوق الإنسان والتقدم والحداثة زورا وبهتانا.

ولكن الخير في هذه الأمة باقٍ، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وستفشل قوى الشر العالمية في تفريغ قيمنا الأصيلة من معانيها السامية،

كما ستفشل قوى الشر أيضا في إلباس النذالة والدناءة والسفاهة والحقارة والأنانية المقيتة والطائفية البغيضة، ستفشل في إلباسها ثياب الشهامة والمروءة والعقلانية والحرية والتقدم والعدالة وحقوق الإنسان. وسيعود شبابنا إلى الأخلاق الكريمة والقيم النبيلة التي عاشت عليها الأمة وتناقلتها الأجيال كابراً عن كابر إلى يومنا هذا؛ قيم الوفاء والأمانة والتعاون والتراحم وحماية الجار وصلة الرحم والنخوة والنجدة وإغاثة الملهوف، والأنفة والعزة والكرامة وقيم المروءة والشهامة، والعدالة والإنسانية الحقة.

نشاط- ٩:

١. اضرب أمثلة على مواقف الشهامة والمروءة من خبراتك الشخصية أومما قرأت عنه أو سمعته في محيطك.

٢. هل وقفت مرة في حياتك موقفا من مواقف الشهامة والرجولة؟ إن لم تفعل اقتد بأهل الشهامة والمروءة واعزم على أن تفعل مثلهم. كان الله في عونك. تحرى إحدى الفرص واغتنمها لتكسب الخير والثواب. وتشعر باحترامك لنفسك.

٣. اعزم من الآن على أن تقف موقفاً من مواقف الشهامة، واصدق في نيتك، فإن فعلت فسترى ثمار هذا الموقف في الدنيا والآخرة. وفقك الله لفعل الخير وأعانك عليه.

خوارم الشهامة

النذالة من خوارم الشهامة

النذالة ضد الشهامة، فالنذل دنيء النفس، ضعيف الهمة، جبان، فاقد النخوة، لا يترفع عن دنايا الأمور، يقبل المهانة ويستكين للذل والظلم لقاء مكاسب زائلة، لا يغيث ملهوفاً ولا يواسي مسكينا.

الطمع من خوارم الشهامة

إن الطمع فيما في أيدي الناس من خوارم الشهامة؛ لأن الطمع يقوده إلى التذلل لهم ويؤدي به إلى دناءة النفس، والانحطاط عن مكارم الأخلاق على أمل أن يناله شيءٌ مما في أيديهم من متاع الدنيا الزائل.

وإن العز والغنى في القناعة؛

ويروى عن الإمام علي رضي الله عنه أو عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال:

أفـــادتني القنـــاعـــةُ كــلَّ عــزٍّ   وأي غنـيً أعـزُّ مـن القناعـة

فصيرهـــا لنفسك رأسَ مـــالٍ   وصَـيِّر بعدَهـــا التقـوى بضاعـة

قال الحبيب عبدالله بن حسين بن طاهر رحمه الله ينصح تلميذه عيدروس بن شهاب أن لا يلتفت إلى ما في أيدي الناس ويدعوه إلى القناعة باللقمة التي تقيم أوده وتسد جوعه، ويبين الراحة التي يجدها الفقراء والتعب

والتشويش الذي يجده الأثرياء، وهي باللهجة الدارجة في حضرموت ويسمونه الشعر الحميني.

لا تلتفـت إلى مـن قالـوا إنـهْ معُـهْ جَـمْ

والله إنـهْ سبـبْ للشوشْـنْ في ذهْ وفي ثَـمْ

إنّ في القِـلّ راحـهْ لا يجدهـا الـذي ضَمْ

إيشْ تبغي بمـا يَفْضُلْ على لقمـة الفمْ

ينصح تلميذه بعدم الإلتفات إلى الأغنياء وإلى أصحاب الأموال ويخبره بأن أموالهم سبب في تشويش حياتهم وتكديرها في الدنيا وفي الآخرة يحاسبون عليها، من أين اكتسبوها وفيم أنفقوها، ويبين له أن في قلة المال راحة لا يجدها الذي ضمَّ عقارات كبيرة وحاز على أموال كثيرة.

وقال أيضاً:

والقناعة خيرْمالْ بختْ منْ ماله زهادَةْ

ليس يُحرقْ ليس يُسرق ليس يَخشى من فسادهْ

فاز عبدٌ قدْ عرفها ثُمَّ سوّاها متاعَهْ

لعظيـمِ الفضـلِ رَبِّي الّـذي مِنْهُ القَناعَهْ

الفصل السابع

العقل من مقومات الرجولة

الفصل السابع

العقل من مقومات الرجولة

العقل أساس الفضائل وينبوع الآداب جعله الله للدين أصلا وللدنيا عمادا فهو مناط التكليف وعليه يترتب الثواب والعقاب. فقد روي عن سيدنا رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال: "لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي ماخلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك، بك آخذ وبك أعطى، لك الثواب وعليك العقاب" (١٠٢) فبالعقل يميز المرء بين الخير والشر وبه تدرك الأمور.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصلُ الرجل عقلُه، وحسبُه دينُه، ومُروءَتُه خُلُقُه.

قال إبراهيم بن سنان:

يزينُ الفتى في الناس صحةُ عقلِهِ وإنْ كان محظوراً عليه مكاسبُه

يشينُ الفتى في الناسِ قلةُ عقلِه وإنْ كرُمت أعراقُه ومناسبُه

قال الحكماء: صديقُ كلِّ أمريءٍ عقلُه وعدوُّهُ جهلُه.

---

(١٠٢) أخرجه أحمد بن حنبل في كتاب الزهد

قال الشاعر:

ألم تَـرَ أن العقـلَ زيـنٌ لأهلِـه ولكـن تمـامُ العقـلِ طـولَ التجاربِ

ولذلك قيل: عليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن فقدوا ذكاءَ الطبعِ فقد مرَّت على عيونِهم وجوهُ العِبَر، وتَصدَّت لأسماعِهم آثارُ الغِيَر.

وقيل أيضا: عليكم بآراء الشيوخ فإنهم أشجار الحكمة.

وقيل: لا تدعُ الأيامُ جاهلاً إلا أدَّبَتهُ. فالخبرة والتجارب تزيد العقل عمقا واتساعاً. وإنّ العقل السليم يدعو إلى الاعتدال والتوسط ومراعاة التوازن في الأمور.

قال صلى الله عليه وسلم:

"خير الأمور أوساطها"(١٠٣)؛ لأن الفضائل هيئات متوسطة بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خيرُ الأمورِ النَّمطُ الأوسطُ؛ إليه يرجع العالي وبه يلحق التالي.

وقال الشاعر:

لا تذهبَن في الأمـــور فَرَطـــا لا تســألـن إذا سألـتَ شَطَطـــا

وكُن مـــن النـــاسِ جميعـاً وَسَطـــا

---

(١٠٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان

الهوى ليس من الرجولة في شيء

أما الهوى فهو مضاد للعقل فهو عن الخير صاد. قال أعرابي الهوى من الهوان. وقال الشعبي: إنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى الرذائل في الدنيا وإلى النار في الآخره.

وقيل في منثور الحكم: مَنْ أطاع هواه أعطى عدوَّه مُناه.

قال هشام بن عبد الملك بن مروان:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كُلِّ ما فيه عليك مقالُ

قال ابن المعتز رحمه الله: لم يقل هشام بن عبد الملك من الشعر سوى هذا البيت وقال الشاعر:

إذا رأيتَ المرءَ يقتادُهُ الهوى فقد ثَكَلتْهُ عندَ ذاك ثواكِلُه
وقد أشمتَ الأعداءَ جهلاً بنفسِه وقد وجَدت فيهِ مَقالاًعَواذِلُه
ومايَردعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى مِنَ النَّاسِ إلّا حازمُ الرأيِ كأملُه

أفضل الجهاد جهاد الهوى

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "طاعةُ الشهوةِ داءٌ وعصيانُها دواء"

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أخاف عليكم اثنين إتباعَ الهوى وطولَ الأمل فإن إتباعَ الهوى بُعْدٌ عن الحق، وطولَ الأملِ يُنْسي الآخرة.

المقصود بالهوى هنا هوى النفس؛ لأن النفس تعشق الشهوات، وتميل إلى الدنيا وزخارفها، وتستثقل الحق.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تركُ الخطيئةِ خيرٌ مِن مُعالجةِ التوبة.

ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا،

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رَجَعْنَا مِـنَ الْجِهَـادِ الْأَصْغَـرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْـبَرِ"، قَالُوا: وَمَـا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟، قَالَ: "جِهَادُ الْقَلْبِ"[١٠٤]

ورواه الخطيب البغدادي بلفظ: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه"

وقال الحسن البصري رحمه الله: أفضل الجهاد جهاد الهوى، وإن من واجبات الرجولة تغليب العقل على الهوى وعلى إتباع الشهوات، فإن إتباع الشهوات يميت المُروءة.

قال الحكماء: مَنْ أماتَ شهوتَه فقد أحيا مروءَتَه.

وقال الشاعر:

قـد يـدركُ الحـازمُ ذو الـرأيِ المُنـى بطاعـةِ الحـزمِ وعصيـانِ الهـوى

(١٠٤) رواه البيهقي

وقد يُزيِّن الهوى للمرءِ القبيحَ حسناً، والضررَ نفعاً، وإن شدَّةَ ميلِ النَّفسِ للشيئِ تجعلُهُ حسناً بتعاميها عن قبائِحِه، وتضخيمها لمحاسنِه،

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "حبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمٍ."

أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة، فإن عيب المحبوب لا يرى. قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولستَ بـراءٍ عيبَ ذا الـودِّ كُلِّـهِ ... ولا بعضَ ما فيـه إذا كنتَ راضيا

فعينُ الرِّضى عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المَساويا

يسوق الهوى إلى الإثم، فالعينُ رائدُ الشهوةِ، والشهوة من دواعي الهوى، أما القلب فرائد الحق، والحق من دواعي العقل، فإن أشكل عليك أمران فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك؛ فإن النفس تستثقل الحق، وتنفر منه، وتميل للهوى وحب الشهوات، وتسرع إلى المحبوب السهل؛ فاترك الهوى تسلم. وأعرض عن الدنيا تغنم، فلا يغرَّنك هواك بطيب الملاهي، فإنَّ مدة اللهو قصيرة، ويبقى عليك إثم ترتكبه من الحرام.

قال علي بن الجعفري سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشد:

أهوى هوى الديـن واللذاتُ تُعجبني ... فكيـف لي بهـوى اللـذاتِ والديـنِ؟

فقالت هما ضرتان فذر أيتها شئت وخذ الأخرى.

لأن هوى اللذات مناقض لهوى الدين، والضدان لا يجتمعان، وإن مِن مظاهر التوفيق للمرء أن يعمل بما يعلم،

فقد روي أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني.

ومن عابَ شيئاً وعملَ بِهِ يَفتحُ على نَفْسِه بابَ المَلامَة والتقريعِ والتوبيخِ.

قال الشاعر:

لا تنـــه عــن خلقٍ وتأتـي مثلَـه   عــارٌ عليـــك إذا فعـلـتَ عظيـمُ

الفصل الثامن

العلم من مقومات الرجولة

الفصل الثامن

العلم من مقومات الرجولة

العلم عصمة للمرء، لأنه يعرفه على نفسه، ويعرفه على حقوقِه وواجباتِه إزاء نفسه وإزاء الآخرين، ويعلمه العيش في المجتمع بأمن وسلام، ويحفظ عليه كرامته، ويصده عن أذى الخلق، قال علماؤنا في الماضي العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان، فعلم الأديان به يعرف الحلال والحرام، وبه تعرف المندوبات والمكروهات والمباحات؛ فيتعلم ما يصلح دينه وأخرته.

وأما علم الأبدان فيشمل العلم الذي يصلح به بدنَه، والعلوم الأخرى التي يصلح بها المجتمع، وتصلح بها أمور الحياة كلها من أمور اقتصادية واجتماعية وزراعية وصناعية، ولابد للمرء الذي يعيش في المجتمع المعاصر من أن يقتبس من هذه العلوم ما يلزمه للعيش السوي في المجتمع، ومعرفة ما يصلح به دينه ودنياه، من قبيل العلم الذي يوفر له كسب ما يسد حاجته وحاجة أهله ويغنيهم عن الحاجة إلى الناس.

وإذا كان الأمر كذلك فإن العلمَ أهم ما ينبغي أن يسعى المرء إلى حيازته، وأشرف ما طلبه الطالبون، ورغب فيه الراغبون، ولذلك امتدح الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز العلم والعلماء، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١٠٥) فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل وقال تعالى:

(١٠٥) الزمر - ٩

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[١٠٦] فنفى أن يعقل غير العالم عنه أمراً، أو يفهم زجرا،

وقد روي عن سيدنا رسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أنه قال: "أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إني عليم أُحِبُّ كلَّ عليم."[١٠٧]

قال بعض الحكماء: العلمُ شرفُ من لا قدرَ له، والأدبُ مالٌ لا خوفَ عليه،

قال مصعب بن الزبير لابنه: تعلم العلم فإن يكن لك مال كان جمالاً، وإن لم يكن لك مالٌ كان لك مالاً.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بني تعلموا العلمَ فإن كنتم سادة فُقْتُم، وإن كنتم وسطاً سُدْتُم، وإن كنتم سوقَةً عِشْتُم.

وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقوِّمك ويُسدِّدُك صغيرا، ويقدِّمُك ويسوِّدُك كبيرا، ويصلحُ زَيفَك وفاسِدَك، ويُرغِم عدوَّك وحاسدَك، ويقوِّمُ عوجَك وميلَك، ويُصحِّحُ همَّتَك وأملَك.

ولايجهل فضلَ العلم إلا أهلُ الجهل، لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم.

قال بن المعتز: العالمُ يعرفُ الجاهلَ؛ لأنَّه كان جاهلاً، أَمّا الجاهلُ لا يعرفُ العالمَ؛ لأنَّهُ لم يكن عالما.

لأجل ذلك انصرفَ الجُهَّالُ عن العلم وأهله، وزهدوا فيهم وانحرفوا عنهم

---

(١٠٦) العنكبوت – ٤٣

(١٠٧) ذكره الماوردي في أدب الدين والدنيا

واسترذلوا العلم واهله، وتوهَّموا أن ما تحبُّه نفوسهُم مِنَ الأموالِ والشهوات والمطامعِ الدنيويةِ هو الأفضل، والأولى أن يسعوا إليه، لأن مَنْ جَهِلَ شيئاً عاداه.

قال الشاعر:

جَهِلتَ فعــاديـتَ العـلـومَ وأهلَهـا　　　كـذاك يعـادي العلمَ مَنْ هُـوَ جاهِلُ

المفاضلة بين العلم والمال

وسُئِل الامام على بن أبي طالب رضي اللّه عنه، عن فضل العلم والمال، فقال: العلمُ خيرٌ من المال؛ العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، العلم حاكم، والمال محكوم عليه، مات خُزَّانُ الأموالِ، وبقي خُزَّانُ العلمِ؛ أعيانُهم مفقودة وأشخاصُهم في القلوب موجودة؛ فالمالُ ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مُستَرجَعَه، وإذا ماتَ صاحبه تركَهُ وراءَه، وأما العلمُ فيبقى معه.

قيل لبزرجمهر: هل العلم أفضل أم المال؟ فقال بل العلم، قيل: فما بالنا نرى العلماءَ على أبوابِ الأغنياءِ، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبوابِ العلماءِ؟ فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم.

فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة، ولو كان لحيازة الدنيا والأموال فضيلة لخَصَّ اللّهُ بها أحبابَه، ومن اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته. ولكن الأنبياء والأولياء كانوا على الغالب فقراء، رزقهم كفاف، رغم ماخصهم اللّه به من كرامة وفضل، وقد أصبحوا مضرب المثل في الفقر قال البحتري:

مـن كـــان يَحمِـدُ أو يَـذُمُ زمانَـه ... هــذا فمـــا أنـا للزمـان بحامِـدِ
فقـرٌ كفقـــرِ الأنبيـــاءِ وغُربـةٌ ... وصبابَـةٌ ليـس البـلاءُ بواحـدِ

فالجهل موتٌ للمرء قبلَ موته. وإنَّ حاجةَ المرءِ إلى العلمِ أشد مِن حاجَتِه إلى الطعامِ والشَّرابِ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن طلب العلم فريضة على كل مسلم"(١٠٨) وفيه تأويلان: الأول: علم ما لا يسع المرء جهله من أمور الدين والثاني: جملة العلوم ومنها علوم فرض الكفاية إذا لم يقم أحد بطلبها وتشمل العلوم الدينية والعلوم العقلية والتجريبية.

وقد يفضِّلُ بعضُ الناس العلومَ العقلية والعلوم التجريبية البحتة، أو العلوم المهنية والتقنية على علوم الدين جهلا منهم لأهمية علوم الدين واستثقالاً لتكاليفه الشرعية، ولكنهم لو أمعنوا النظر لوجدوا أن العقل يمنع أن يترك الخالق سبحانه وتعالى الناسَ دون رعاية وتنظيم، يعتمدون على أرائهم المختلفة ورغباتهم المتناقضة وأهوائهم المتشعبة؛ لأن ذلك يؤول بهم إلى الاختلاف والتنازع والفوضى العارمة التي تفضي إلى التباين والتقاطع والتدابر والحروب وسفك الدماء وانتهاك الأعراض، إن الله سبحانه وتعالى أعدل وارحم وأرأف بخلقه من أن يتركهم هملا بلا راع يرعاهم، أو رادع يردعهم، أو قانون ينظم حياتهم ويقودهم الى التعارف والتآلف والتعاون والتعايش السلمي الآمن في المجتمع. فالعقل السليم يحكم بضرورة وجود الدين في الحياة.

---

(١٠٨) أخرجه الحاكم في الكنى، والبيهقي في شعب الإيمان

التفقه في الدين فرض على كل مسلم

ورُوِيَ عـن رسول اللّه صلـى اللّه عليه وسلم: الفقه في الدين فرض على كل مسلم، ألا فتعلَّموا وعلِّموا، وتفقَّهوا ولا تموتوا جهالاً."(١٠٩)

ورُوِيَ عـن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما أنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم دخل المسجد، فـإذا هو بمجلسين: أحدهما يذكـرون اللّه تعالى، والآخر يتفقهون، فقال صلى اللّه عليه وسلم : "كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحب إلي مـن صاحبه، أما هؤلاء فيذكـرون اللّه تعالى ويسألونه؛ فإن شاءَ أعطاهم، وإن شـاءَ منعهم، وَأَمـا المجلس الآخر، فيتعلَّمون الفقـهَ ويُعلِّمون الجاهلَ وإنَّما بُعِثتُ معلماً. "وجلس إلى أهل الفقه"(١١٠)

وروي عنـه صلى اللّه عليـه وسلم أنَّه قال: "يحمِلُ هذا العلـمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدولُه يَنفونَ عَنْه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المُبطلين، وتأويلَ الجاهلين"(١١١).

وروي عـن عَلِـيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُـمَّ ارْحَمْ خُلَفَائِي، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قِيـلَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَمَنْ خُلَفَـاؤُكَ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْـدِي، وَيَرْوُونَ أَحَادِيثِـي، وَسُنَّتِي، وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ."(١١٢)

---

(١٠٩) ذكره الماوردي في أدب الدين والدنيا

(١١٠) أخرجه الطيالسي في مسنده، والبزار في مسنده

(١١١) أخرجه ابن حبان، وابن عساكر في تاريخ دمشق

(١١٢) رواه الخطيب البغدادي

التعلـم عملية لا نهاية لها، والعلم بحر لا ساحل له، وهو بحر عميق متوالي الأطراف لا تدرك أطرافه ولو صرف المرء طوال عمره في طلب العلم لما استوفى منه إلا قليلا. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[113]

وقد بين الإمام الشافعي رحمه الله فضيلة بعض أنواع العلوم فقال: من تعلم القرآن عَظُمت قيمتُه، ومن تعلم الفقه نَبُل مقدارُه، ومَنْ كتب الحديث قويت حُجَّتُه، ومن تعلم الحساب جَزُلَ رأيُه، ومن تعلم اللغةَ رقَّ طبعُه، ومن لم يَصُن نفْسَه لم ينفعْهُ عِلْمُه.

---

(١١٣) الإسراء - ٨٥

صيانة النفس أصل الفضائل

صيانة النفس من صفات الرجولة، والمقصود منها هو أن يبعد المرء نفسه عن مواطن الريبة، ويترفع عن الأمور الدنيئة، ويسمو بنفسه عن الكسب الرخيص، وينأى بنفسه عن الرذائل، وعن كل قبيح.

التنزه عن مواقف الريبة من شروط المروءة

مواقـف الريبة هي مواقف بين حالتي الحمد والـذم، وتتوجه إلى من يقفُ مواقـف الريبة لائمة المتوهمين، وذلة المريبـين، والريبة هي الشك؛ فإن صحت الريبة أي صح الشك افتضح، وإن لم تصح امتُهِن[١١٤].

وسئل أحد الحكماء عن المُروءة فقال: أن لا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية.

وقال صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك."[١١٥]

وعلاج الريبة بالابتعاد عن مواقفها ولا يتم ذلك إلا بالتورع عن تلك المواقف.

قال حسان بن أبي سنان: ما وجدت شيئا أهون من الورع، قيل له: كيف ذلك ؟ قال إذا ارتبتُ في شيءٍ تركتُه.

---

(١١٤) **امتُهِن**: ابتذل واحتقر

(١١٥) رواه النسائي

الباعث على مواقف الريبة

إن الباعث على مواقف الريبة حسن الظن بالناس، والتهاون وعدم الحيطة والحذر، وإن الذي يحمي المرء من مواقف الريبة الحذر من سوء ظن الناس، والتفكر فيما يترتب عليها من العواقب، والحياء من الناس، والحرص على صيانة النفس عن مواقف التهم ولوكنت بريئا، فإن الناس جبلوا على سوء الظن وبخاصة فيما يتعلق بالنساء وبما يتعلق بالأمول. وتزداد الريبة شدة إذا تعلق الأمر بعلماء الدين؛ هناك يجند الناس كل مواهبهم في الطعن في الأعراض أو كيل النصائح والمواعظ، وفي فعل ما ينبغي وما لا ينبغي. فجدير بعلماء الدين أن يكونوا على حذر وحيطة وأَن يبتعدوا عن مواقف الريبة، وأن لا يعتمدوا على حسن الظن بالناس.

إرشاد نبوي

وقد ترتفع الريبة بحسن الثقة وطول الخبرة، ولكن الحذر والخوف من تصديق التُّهَم أكيس وأفضل، فما كل ريبة تُنْفى بحسن الثقة؛ فقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها، وكان معتكفا، فمر به رجلان من الأنصار، فلما رأياه أسرعا؛ فقال لهما على رسلكما (أي على مهلكما) . إنها صفية بنت حيي؛ فقالا سبحان الله أوفيك شك؟! فقال : "ان الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلبيكما سوءا بي." (١١٦)

(١١٦) متفق عليه

أنظر إلى رحمته صلى اللّه عليه وسلم بأمته فلو دخل الشك وسوء الظن به في قلبيهما لهلكا. ثم انظر كيف اتخذ صلى اللّه عليه وسلم الحيطة والحذر خوفاً عليهما أن يسيئا الظن به فيهلكا؛ وهذا من باب الرأفة والرحمة الذي أرسل بها للعالمين. وهو أبعد الخلق عن الريب وأصونهم من التهم؛ لأن اللّه عصمه. ورغم ذلك اتخذ الحيطة والحذر تعليماً للأمة، وحفاظاً على تماسك المجتمع.

فحري بالإنسان أن يستعمل الحزم ويغلب الحذر والحيطة ويبتعد عن مواقف الريب ومظان التهم ولا يقف مواقف الاعتذار.

قال الحكماء: لا تقصر في حق أخيك اعتمادا على مروءته.

وقال الشاعر:

أصونـــك أن أدل عليـــك ظنـــا لأن الظـــن مفتـــاح اليقـــين

وقال آخر:

أحسنت ظنـي بـــأهـل دهـــري فحســـن ظنّي لهـــم دهـــاني

لا آمـــن النـــاس بعـــد هـذا مـــا الخـــوف الا مـن الأمـــان

قال بعض الحكماء: من حَسَّنَ ظنَّه بمن لا يخاف اللّه تعالى فهو مخدوع،

فمن تحققت فيه شروط النزاهة ظهرت مُروءَتُه واشتهر فضلُه بين الناس وكان أهلا للفوز والنجاح في الدنيا والأخرى.

لا تعتمد على ثقة الناس بك

ولا ينبغي للرجل العاقل، أن يَتَبذَّل ويرتاد أماكن الريبة، اعتمادا على ثقة الناس به، وثقةً بما منحه الله من فضيلة العلم، معتمدا على أنه فوق الشبهات، وأن الناس لا ينبغي أن يظنوا به شراً؛ فوق ما هو فيه من العلم والفضيلة، ونظرا لموقعه في الدعوة والإرشاد، وبالنظر إلى تاريخه الحافل بالفضائل والأخلاق الحميدة، قد تسول النفسُ والشيطان للمرء هذه الأفكار ويدخلا على العالم شيئاً من العجب لتزل قدمه.

ولكن العاقل يحذر من هوى النفس ووسوسة الشيطان ويعلم أن ما لديه من علم ماهو إلا مِنَّة من الله عليه ويبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. ولا ينبغي أن ينسى العاقل أن من طبائع الناس الحسدَ، والحقدَ، والنزاعَ، والجدالَ، والمنافسة، فإذا حصلت هفوةٌ من عالمٍ، أو رجلٍ مشهورٍ، أو ذي مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع، تلَقَّفوها وتناولوها بالشرح والتفصيل، والتضخيم، وانصرفت عيونُهم من محاسن الشخص إلى مساوئه، ووضعوا مساوئه تحت المجهر وكبروها وضَخَّموها، وجعلوا منها مشكلة تخص العلماء وأنهم لا ينبغي أن يعملوا كذا و... وأخرجوهم عن طور البشرية، وقد يحولوا الحدث إلى قضية دينية ليطعنوا في الدين وأهله، ويحرص الجهال على تلقف هفوة العالم ليسلبوه فضيلة العلم، ويحرموه فضيلة التفوق عليهم، لؤماً منهم وبغضاً لأهل العلم. ويتناسون فضائله، ويغمزون في انجازاته.

فليحذر العلماء من مواقف الريب، وليتمسكوا بصيانة النفس عنها؛ حتى لو كان في ذلك الموقف مصلحة قد تكون واضحة للعالِم ولكنها خافية على العوام، فيتلقفها الجهال وأعداء الإسلام للطعن في الدين وفي علماء الدين؛ فإن زلَّةَ العالِم لاتُقال، وهفوتَه لا تُعْذَر.

وقد قيل: زلّة العالِم زلّة العالَم.

وقد قيل في منشور الحكم: زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير، وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: من أشد الناس فتنة ؟ قال: زلةُ العالِم، إذا زلَّ هلك بزلتِه عالَم كثير.

فإذا صان ذا العلم نفسه عن الرذائل والقبائح ودنايا الأمور، ولازم فعل الفضائل، أمِن تنقيص المعادين، وعداوة الجاهلين، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة، وعزة النزاهة، وكرامة المُروءة.

نشاط- ٥- :

١. اضرب أمثلة على التنزه عن مواقف الريبة من خبراتك الشخصية أومما قرأت عنه أو سمعته.

٢. حدد لنفسك مجالا من مجالات النزاهة عن مواقف الريبة؛ ثم اعزم على أن تكون نزيها في ذلك المجال؛ فإذا فعلت تكون قد بدأت بالسير في طريق النجاح والفلاح، فأبشر بالخير، ثم انتقل إلى مجال آخر وكن نزيها فيه أيضا.

٣. فإذا فعلت ذلك فستشعر بالراحة الداخلية والطمأنينة وستحس باحترامك لنفسك واعتدادك بها، وسيبدو ذلك عل شخصيتك وسترى احترام الناس لك.

٤. اذكر بعض الأمثلة على أشخاص أبرياء وقفوا مواقف الريبة عن حسن نية ظناً منهم أن الناس لايمكن أن يسيؤا الظن بهم، ولكن حصل العكس وأساء الناس الظن بهم، وأصبحوا في موقف المتهم.

أمثلة لصيانة النفس:

ومـن صيانــة النفس، عدمُ إعجاب المـرء بعلمه، وسببُ العجـب نظرُ المرء إلى مـن دونه من الجهال، وانصرافُ نظرِهِ عمَّن فوقَهُ مِنَ العلماء، قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(١١٧).

مـن شـاء غيثـا هنيئـا يستفيـد بـه ... في دينـــه ودنيـــاه إقبـــالا

فلينظـرن إلى مـــن فـوقـه أدبـا ... ولينظـرن إلى مـــن دونـه مـالا

وقـد قـال الجاحظ في كتـاب البيان: اللهم إنـا نعوذ بك مـن التكلف لما لا نحسـن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من شر السلاطة(١١٨)،

(١١٧) يوسف – ٧٦

(١١٨) السلاطة : حدة اللسان

والهـذر[١١٩]، كما نعوذ بـك من شر العي[١٢٠]، والحصـر[١٢١]، اللهم أعذنا من الشرور كلها.

ووذكـر الماوردي أنه روي عن الإمام علي بن أبـي طالب رضي الله عنه أنه قـال: خمسٌ خذوهنَّ عنّـي؛ فلو ركبتم الفلـك ما وجدتموهـن إلا عندي: ألا لا يرجُـوَنَّ أحـدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبَه، ولا يستنكـف العالمُ أن يتعلَّم ما ليس عنده، وإذا سُئِل أحدُكم عمَّا لا يعلم، فليقل: لا أعلم، ومنزلةُ الصبرِ من الإيمان بمنزلة الرأسِ من الجَسَد.[١٢٢]

وشيمةُ العالِم العملُ بعلمه، والإئتمارُ بما يأمُر الناس به، وقد قيل ثمرة العلم أن يعمل به، وثمرة العمل أن يؤجر عليه. قال في الإحياء:

وعـــالم بعلمـــه لـــم يعمـلـن   معـذب مـــن قبـل عبـــاد الوثـن

وإذا عمل العالم بعلمه يجب أن يكون عمله خالصاً لوجه الله الكريم حتى يؤجر عليه، أما إذا كان يقصد من عمله الرياء، أو حب الجاه، او أي مطلب دنيوي آخر فلا يؤجر عليه، والله أعلم بخفايا النفوس.

وليعلم العالِم أن علمه حجةٌ عليه عند الله تعالى، ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم من يحتاجون إلى التعليم فإن البخلَ به لؤم وظلم، والمنعَ منه حَسَدٌ وإثم.

---

(١١٩) **الهذر**: إكثار الكلام بغير فائدة

(١٢٠) **العيّ**: عدم القدرة على الإفصاح

(١٢١) **الحصر**: عدم القدرة على البيان حياءً، أو خوفاً، أو ضعفا.

(١٢٢) في "أدب الدنيا والدين"

فإن للعالِم بالتعليم نفعين: الأول ما يرجوه من ثواب الله تعالى، والثاني زيادة العلم، فإن التعليم يزيد العلم عمقا وفهما، ويساعد على إتقان الحفظ، وكل شيء ينقص بالإنفاق إلا العلم، فإنه يزيد بالإنفاق.

ومن اداب العلماء نزاهة النفس عن شبه المكاسب، والقناعة بالميسور. قال الشاعر:

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزَّةُ النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمعٌ صَيَّرتُه لي سُلَّما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن فإتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

ومن أدأب العلماء: النصح لمن يعلمون، والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في معرفتهم؛ فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأنشرُ لعلمهم، وأرسخ لعلومهم، ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما، ولا يستصغروا مبتدئا فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وَقِّروا من تتعلَّمون منه ووَقِّروا من تعلِّمونه."(١٢٣)

ومن آدابهم تحبيب المتعلمين بالعلم، وبيان فضائله، وعدم تنفير الراغبين وتقنيطهم.

---

(١٢٣) أخرجه البيهقي في الشعب، واحمد، والطبراني في الأوسط

الفصل التاسع

التدين من شيم الرجولة

لا رجولة بلا دين

الفصل التاسع

التدين من شيم الرجولة

لا رجولة بلا دين

الدين ضروري لصلاح المجتمع

يدركُ الإنسانُ العاقل أن المجتمع الإنساني لا يقوم ولا يستتب فيه الأمن بلا قانون ينظم علاقات الناس ببعضهم بعضا، ويحدد الحقوق والواجبات للأفرد والجماعات. ويدرك العقل السليم أن خالق هذا الكون بما فيه الإنسان لا يمكن أن يتركهم هملا بلا قانون ينظم شئون حياتهم. لأننا نلحظ القانون الإلهي في عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الحشرات، وجميع العوالم. انظر إلى النظام الدقيق في مملكة النحل، وانظر إلى عالم النمل والنظام الذي يحكمه. وانظر إلى عالم الطير....إلخ تجد أن هذه المخلوقات تعيش وفق قانون إلهي تلتزم به، مطيعة لله سبحانه خالق السماوات والأرض، قال تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١٢٤)

وهكذا يقرر القرآن الكريم أن أصناف المخلوقات عبارة عن أمم لها قوانينها و أنظمتها وأنها ستحاسب وتحشر إلى ربها يوم القيامة.

---

(١٢٤) الأنعام: ٣٨

وقد مَيَّزَ الله تعالى جنس الإنسان من بين سائر المخلوقات بالعقل وحرية الاختيار تكليفاً واختباراً من الله وحمَّلَهُ الأمانة. وخصه بإرسال الأنبياء والرسل ليرشدوه إلى طريق الهدى حتى لا يسيء استعمال الحرية التي هي منحة إلاهية، وأنزل عليهم الشرائع بما فيها من أوامر ونواهي، وبين لهم الطريق السليم للنجاة من النار ودخول الجنة. قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.(١٢٥) فكيف يترك الله سبحانه وتعالى عالم الإنسان هملاً بلا قانون إلهي والإنسان سيد الكائنات؟! إذن لا بد من وجود الدين لحفظ المجتمع الإنساني وتنظيمه، لأن معنى عدم وجود قانون إلهي لعالم الإنسان؛ أن يترك الناس لآرائهم المختلفة وأهوائهم المتناقضة ورغباتهم المتباينة الأمر الذي يؤدي إلى انتشار التنازع والاختلاف والتقاطع والتدابر وانفراط عقد المجتمع الإنساني على خلاف جميع العوالم المخلوقة في هذا الكون الفسيح.

فالله سبحانه وتعالى خلق أجناس الكائنات في هذا الكون وأعطى كل جنس منها خلقه وهيئته وتركيبه الجسدي ثم هداه إلى نظام الحياة الذي يصلحه ويحقق الغاية التي وجد من أجلها. وجعل هذا النظام في فطرته التي فطره الله عليها وقد تجلت هذه الفطرة الالهية بالنسبة للإنسان في العقل السليم؛ الذي هو أول مكارم الأخلاق، وفي العهد الذي أخذه الله على الإنسان في عالم الذر "**يوم ألست بربكم**". ثم أرسل الله سبحانه الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ليذكّروا الإنسان بهذا العهد رأفة من الله ورحمة، حتى لا

---

(١٢٥) آل عمران: ١٨٥

التدين من شيم الرجولة

ينســى الإنسان عهده الذي عاهد عليــه الله، ويقع في المعصية ومخالفة النظام الإلهي في هذا الكون. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾.[126] ويقول سبحانــه وتعالى في القرآن الكريم حكاية عن فرعــون وموسى على نبينا وعليه الصــلاة والسـلام: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[127]

وقــال تعــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾[128] فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ووضع له النظام الذي يصلحه ويحقق الغاية التي خُلِقَ من أجلها، شأنه في ذلك شأن سائـر المخلوقات التي خلقها ووضع لكل منها نظاما فيه كل ما يصلحها ويحقق الغاية مـن وجودها. وهكذا شأن الإنسان فقد هـداه إلى اتباع النظام الخاص به والعمل بموجبه في هذه الحياة الدنيا، وسيحاسبه تعالى يوم القيامة على ما شرعه له في هذا النظام.

قال الشاعر:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَـهُ ... فما فاتَـهُ منها فليس بضائرِ

فلن تعدل الدنيا جناحَ بعوضةٍ ... ولا وزنَ ذرٍ مِنْ جنـــاحٍ لطـائرِ

فمـــا رضي الدنيـــا ثوابـاً لمؤمنٍ ... ولا رضي الدنيـــا جـزاءً لكافـرِ

---

(١٢٦) الأعلى- ٢ ، ٣

(١٢٧) طه – ٤٩ ، ٥٠

(١٢٨) الآنفطار – ٦ ، ٧ ، ٨

وروي عن الامام علي كرم الله وجهه:

فلـــو أنّـا إذا متنـــا تُـركِنـا   لـكان المـوتُ راحــةَ كلِّ حيّــي

ولكنـــا إذا متنــــا بُعثنـــــا   ونسـأل كلُّنـــا عـــن كلِّ شيـئ

الفصل العاشر

العدل من شيم الرجولة

الفصل العاشر

العدل من شيم الرجولة

العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق، فلا تخالف الله في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه، والعدل إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به ولا صلاح فيها إلا معه.

إن الإنسان الذي يتمتع بشرف النفس وعزتها ويتصف بالأنفة والهمة العالية ينظر دائماً إلى معالي الأمور ويترفع عن الأمور الدنيئة فيكون صادقاً مع نفسه ويبتعد عن الخيانة وعن الطمع عما في أيدي الناس ويأنف من أن يذل نفسه في سبيل الحصول على مكاسب دنيوية زائلة، لذلك تجده يتحرى فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، وهي أخلاق الرجولة الحقَّة والشهامة والمروءة، وهذه لا يمكن أن تتحقق إلا بالعدل وهو التوسط بين الإفراط والتفريط، فإن الفضائل هيئات متوسطة بين رذيلتين.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلامِ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ[(١٢٩)]".

---

(١٢٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية

وشاهد الحال هنا أن أول المنجيات العدل في الغضب والرضى كما قال صلى الله عليه وسلم. وهو أن لا يحمله الغضب على متابعة الهوى وعلى ظلم الخصم انتقاماً لهوى نفسه، كما لا يحمله الرضى على تجاوز الحد في إرضاء نفسه على حساب حقوق الآخرين.

والعدل كما قسمه الماوردي رحمه الله ينقسم إلى عدل الإنسان في نفسه وعدله في غيره.

العدل في النفس:

ويكون بحمل النفس على عمل الفضائل وكفها عن عمل القبائح، وبحملها على الوقوف على حد الاعتدال بين الإفراط والتفريط، وبين التجاوز والتقصير، وأن لا يظلم نفسه بمخالفة أمر الله الواحد القهار، فمن ظلم نفسه فهو لغيرها أظلــــم.

وان يكون صادقاً مع نفسه. والصدق مع النفس: أن لا يقول شيئاً وهو يبطن خلافه؛ وهذا يعني أن تكون نيته خالصة لوجه الله تعالى، وأن لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا تكبر ولا طلبٌ لأغراض دنيوية ومطامع شخصية.

العدل في غيره:

ولا يخلو أن يكون العدل في غيره على واحد من ثلاث: العدل فيمن دونه، والعدل فيمن فوقه، والعدل في أقرانه.

العدل فيمن دونه:

ومن أمثلته عدل الحاكم في رعيته، وعدل الرئيس في مرؤوسيه، وعدل الرجل في أهل بيته، وعدل المرأة في بيت زوجها،

وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيِّته، الإمام راع ومسئول عن رعيّته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، قال: وحسبت أن قد قال: والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته" (١٣٠)

والعدل في مثل هذه الحالات يتضمن ابتغاء الحق ومعرفته وإتباعه في جميع قراراته وتعاملاته مع من هو راع لهم، والعمل بإخلاص على تيسير أمور حياتهم، وعدم تعقيدها، وتجنب كل ما يكدر عليهم حياتهم، ويعيق تحقيق مصالحهم.

ومن العدل فيهم عدم التكبر والتجبر والتسلط عليهم، وعدم مصادرة حقوقهم، ومن العدل فيهم حُسْنُ التعامل واللطف معهم، والرحمة بهم، واحترام شخصياتهم، وحسن الاستماع إلى أرائهم وأفكارهم ومطالبهم، والسعي لحل مشكلاتهم، وإظهار التعاطف معهم، والحرص على حفظ حقوقهم وتحقيق مصالحهم.

---

(١٣٠) متفق عليه

قــال تعــالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٣١].

ومن شروط العدل فيمن دونه أن يكون رؤوفاً بهم أي يحميهم من الأضرار، ويمنع عنهم الشرور والأشرار. وأن يكون رحيماً بهم أي أن يحرص على إيصال الخير لهم، وأن يرشدهم إلى كل ما فيه نفع لهم في الدنيا والآخرة.

ومن منثور الحكم: "العدل أساس المُلْك". وإن العدل قد يُبقي على المُلكِ ولو كان على الكفر، وإن الظلم قد يزيل المُلكَ ولو كان على الإيمان. وقد قيل: أقرب الأشياء صرعةُ الظالم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم، وإذا رغب المَلِكُ عن العدل رغبت الرعية عن طاعته.

العدل مع من فوقه:

ومن أمثلة العدل مع من فوقه؛ عدل الإنسان مع الحكام في بلده، وعدل العمال مع رئيسهم، وعدل الموظفين مع مدير الشركة التي يعملون فيها، وعدل أفراد الأسرة مع رب الأسرة، وعدل المعلمين في المدرسة مع مديرهم.

ويكون العدل بإخلاص الطاعة، وصدق النصيحة، والإخلاص والصدق في العمل؛ فاذا توفرت هذه الأمور الثلاث انتفى سُوء الظن، وانتشر حُسن الظن والطمأنينه في المؤسسة سواءً كانت بيتاً أو شركةً أو حكومة أو مدرسةً، وتوجهت جهود العاملين نحو غاية واحدة وهي مصلحة المؤسسة، وازداد الانتاج، وانتشر التعاون، وقويت أواصر الألفة الاجتماعية والتَّوادّ والتراحم بين أفراد المؤسسة. وقد قيل في منشور الحكم: أطع من فوقك ليطيعك من دونك.

(١٣١) التوبة - ١٢٨

عدل الإنسان مع أقرانه

عدل الإنسان مع أقرانه وزملائه ومع أكفائه من أفراد المجتمع الذي يعيش فيـه، ويكون ذلك بعدم التكبر عليهم، وكف الأذى عنهم، ومجانبة الإدلال(١٣٢) عليهـم، والإعجاب بعمله، وتحميلهم المِنَّــة، وتوقعه المكافأة والشكر منهم على صنيعه معهم.

إن التكبر والتطاول على الأقران يؤدي إلى التقاطع والتدابر، وفساد الأمر وعدم التعاون، وفقدان الثقة بين الناس. وبصفة عامة فان العدل مع الأقران هو الاعتدال والتوسط في التعامل معهم. وعلى سبيل المثال لا يثقل عليهم في الزيارة، ولا يكثر التردد عليهم، وفي الوقت نفسه لا يقطعهم ولا يجفوهم؛ فالاعتدال والتوسط أن يهنئهم في أفراحهم، ويواسيهم في أتراحهم، ويساعدهم فيما يحل بهم من ملمات. فما جاوز الاعتدال والتوسط فقد خرج عن حد العدل.

قال الحكماء: الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين وقالوا أيضا: الفضائل تتوسط بين رذيلتين.

ولستَ تجدُ فساداً إلا وسبَبُه الخروج عن حالة العدل؛ أي الخروج عن حالة التوسط والاعتدال إلى حالة الإفراط أو التفريط، أو حالة الزيادة أو النقصان.

---

(١٣٢) **الإدلال:** الجرأة عليهم ورفع الكلفة، وأخذهم على غرة.

الرجولة أن تملك نفسك

إن من الأمور التي يصلح بها حال الإنسان في الدنيا أن تكون له نفس مطيعة إلى رشدها، ومنتهية عن غَيِّها؛ فمن ملك نفسه أطاعته، ومن لم يَمْلِكها مَلَكَتْه، ومن مَلَكَته نفسه أصبح مطيعا لها ومتبعا للهوى مبتعداً عن العدل وعن الفضائل والأخلاق السامية فَتُورِدُهُ المهالك، وإن أَمَرَهَا لا تطيعه، ومن عجز عن تطويع نفسه فهو عن تطويع غيرها أعجز. ومن عصته نفسه فهو بمعصية غيرها له أحرى، ومن لم يملك نفسه فالأحرى به أن لايملك غيرها. وقد قيل من ملك نفسه ملك الدنيا، أو كأنما ملك الدنيا. وإن الرجولة تقتضي أن لا يكون المرء مستعبدا لأمر من أمور الدنيا. لأن الرجولة تأنف العبودية إلا لله الذي خلقها.

قال بعض الحكماء: لاينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه غير مطيعة له. قال الشاعر:

أتَطمَعُ أن يُطيعَك قلبُ سُعدى وتَزعُمَ أنّ قلبَكَ قد عصاكَ

ولا ينبغي أن يطمع المرء في طاعة غيره ما دامت نفسه لا تطيعه. قال الحكماء: إن المرأة بمنزلة النفس؛ فإن كانت نفسك مطيعة لك، فإنك غالباً ستحظى بطاعة امرأتك لك، والعكس بالعكس. فإن كانت نفسك عاصية لك؛ فأنت لا تملكها، بل هي مالكة لك فتصبح مطيعا لها تابعا لهواها فتوردك المهالك في الدنيا وفي الآخرة.

ولهذا السبب انتشرت حالات نشوز الزوجات في هذا الزمن، وليس هذا

فحسب بل أصبح الزوج هو الذي يطيع زوجته في غالبية الأحيان. وما سبب ذلك إلّا عجزه عن التَّحَكُّمِ في نفسه وتطويعِها. فمن استَعبَدَته نفسُه فقد أتاح للآخرين الفرصةَ لاستِعبادِه.

ومن علامات طاعة نفسِك لَك؛ أن تكون صادقةً معك؛ وصدقُها أن ترى الحق حقاً وتستحسنه، وأن ترى الباطل باطلاً وتستقبحه، وتصدق النفس إذا سلمت من دواعي الهوى. ومن علامات طاعة نفسك لك أيضا؛ سرعة الاستجابة للأمر، والمسارعة إلى الانقياد وتنفيذ الأمر أو النهي. وهذا هو طاعة النفس لفعل الواجبات، والانتهاء عن فعل المحظورات. ولا يتم ذلك إلا بسيطرة الإنسان على شهواتِه.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾.(١٣٣)

ومن أجل ذلك علمنا رسول الله عليه أزكى الصلاة والسلام هذا الدعاء الذي هو كنز من كنوز الدنيا والآخرة. وقال لشداد بن أوس رضي الله عنه: ("ياشداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة، فاكنز هؤلاء الكلمات: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبَاً سَلِيماً، وَلِسَاناً صَادِقَاً، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ")(١٣٤)

---

(١٣٣) النساء – ٢٧

(١٣٤) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، والطبراني في المعجم الكبير

الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ يعني الثبات على أمر الله في جميع أمور الدنيا والدين؛ فإن الثبات عليها يكون بالتوفيق على طاعة الله بالاستقامة على الهدى، والسداد في الرأي.

العزيمة: هي القصد الجازم المتصل بالفعل، وهو عقد القلب على إمضاء الفعل.

والعزيمة على الرشد تعني القصد الجازم المباشر بالفعل لتنفيذ أمر الله بلا تردد أو تهاون أوتأجيل أو مراوغة.

وعزم الأمر تعني اتخاذ القرار بالفعل بلغة العصر الحاضر. أي أن العزم هو اتخاذ القرار بعينه.

والرشد هو الصلاح والفلاح والصواب.

والعزيمة على الرشد تعني القصد الجازم المباشر بفعل ما هو صلاح وصواب وما فيه النجاح والفلاح.

وقد كان علماؤنا في الماضي يوصون بقراءة هذا الحديث الشريف في كل يوم رجاء بركته واستجابة ما فيه من الدعاء وتوجه القلب إلى الله سبحانه وتعالى.

الفصل الحادي عشر

الأخوة والصداقة والصحبة من الرجولة

الفصل الحادي عشر

الأخوة والصداقة والصحبة من الرجولة

الصداقة من أسباب التآلف في المجتمع، وهي حاجة اجتماعية لكل إنسان، فبالأُلفة تجتمع القلوب ويحصل التعارف والتآلف والتعاون بين الناس. روى جابر رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "المؤمن آلِفٌ مألوف، ولاخيرَ فيمن لا يألف ولا يُؤلف، وخيرُ الناس أنفعُهم للناس"[١٣٥].

فالأُلفة جامعة مانعة، تحمي الإنسان من أذية أعدائه، والعرب تقول: من قلَّ ذلّ. والمرءُ كثيرٌ بإخوانه أي أصدقائِه. والصداقة نوع من الصحبة والمؤاخاة بالمودَّة، ولذلك آخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، لتزيد أُلفتُهم وتآلفُهم، وتقوى عرى الصداقة والمودة بينهم،

يروى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: "عليك بإخوان الصدق، فإنهم زينةٌ في الرخاء، وعصمةٌ في البلاء."

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا بُنيّ الغريبُ من ليس له حبيب.

وقال بعض الحكماء: أفضل الذخائر أخٌ وَفِيّ،

وقال أخر: صديقٌ مساعد عضدٌ وساعد.

وقيل: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه، والعدو عدوًا لعدوه عليك،

---

(١٣٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق

الإنسان بطبيعة الحال مقصودٌ بالأذية، محسودٌ على النعمة؛ فإذا كان آلفا مألوفا انتصر بالأُلفة على أعاديه، وامتنع من حاسديه وصفت مدته عنهم.

قال بعض الشعراء:

همـوم رجـالٍ في أمــورٍ كثيــرةٍ — وهمِّي من الدنيـا صــديقٌ مساعدُ

نكـون كـروحٍ بـين جسمـين قُسِّمَـت — فجسماهمـا جسمانِ والـروح واحــدُ

وقال الكندي: الصديقُ هو أنتَ إلّا أنَّه غيرُك.

وروي أن أبابكر الصديق أقطعَ طلحةَ بن عبيد اللّه أرضاً وكتب له كتاباً وأشهد فيه ناساً منهم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، فأتى طلحةُ بكتابِهِ إلى عُمَر فامتنع عليه، فرجعَ طلحةُ مغضباً إلى أبي بكر رضي اللّه عنه، وقال له: واللّه ما أدري ءَأَنْتَ الخليفةُ أم عمر؟ فقال: بل عمر لكنَّه أنا.

وقالـت الحكمـاء: مَـنْ لَم يرغـب في ثـلاث بُلِـيَ بسـتٍ، مـن لم يرغب في الإخوان(١٣٦) بُلِيَ بالعداوةِ والخذلان، ومن لم يرغب في السلامة، بلي بالشدائد والامتهان، ومن لم يرغب في المعروف بُلِيَ بالنَّدامَةِ والخُسران.

فالأصدقاءُ من أنفس الذخائر، وأفضلِ العُدَد، وقالت الحكماء أيضا: ربَّ صديقٍ أوَدُّ مِنْ شَقيق، وقال الشاعر:

لَمَــودَّةُ مَنْ يُحِبُّكَ مُخلِصــاً — خيرٌمِنَ الرَّحـمِ القريـبِ الكاشِحِ

---

(١٣٦) الإخوان: الأصدقاء

وقال أخر:

يخونُـكَ ذو القُربـى مِـراراً وَرُبَّمـا — وَفَّـى لَك عنْد العَهدِ مَـنْ لا تُناسِبُه

وقال الحكماء: اعرف صديقَك بصديقِه قَبْلَك، وقال أخر: يُظَنُّ بالمَرءِ ما يُظَنُّ بقَرينِه. وقال الشاعر:

عـنِ المـرءِ لا تسأل وَسَل عـن قَرينِهِ — فَكُلُّ قَريـنٍ بالمُقــارَنِ يَقْتَـدِي

إذا كنـتَ في قـومٍ فصاحـب خيارَهُـم — ولا تصحـب الأردى فتردى معَ الرَّدي

لذا قال بعض البلغاء: صحبةُ الأشرار تورثُ سوءَ الظَّنِّ بالأخيار.

وقالوا أيضا: الصَّاحبُ ساحِب. أي إذا كان من أهل الخير والصلاح سحبك إلى الخير والصلاح، وإن كان من أهل الغيِّ والفساد سحبك إلى الضلال والفساد. فالصحبة أمرها خطير؛ وينبغي أن يحتاط المرء ويحذر كل الحذر عند اختيار الأصحاب، والله الموفق للصواب. وفقنا الله وإياكم لاختيار أهل الخير والرشاد.

ولكي تدوم الصحبة وتستمر ينبغي أن تخلوا من التكلف الزائد عن الحد، وأن يكون التكلف مرفوعاً بين الأصحاب والأحباب والإخوان.

قال صلى الله عليه وسلم: "أنا وصلحاء أمتي برءاء من التكلف."[١٣٧]

---

(١٣٧) رواه الطبراني

التَّوَدُّد إلى النَّاس مِنْ شِيَم الرِّجولَة

عـن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "رأسُ العقلِ بَعْـدَ الإيمانِ بالله تعـالى التَّـوَدُّد إلى النَّاسِ."[١٣٨] المقصود من التودد إلى الناس مداراتهم فيما ليس فيه ثَلْم الدين.

وروي أن سليمان بن داؤود عليه السلام قال: لإبنه لا تستكثر أن يكون لك الفُ صديق فالألفُ قليل، ولا تستقلَّ أن يكون لك عدوٌ واحد، فالواحد كثير.

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أفدتَ في مُلْكِكَ هذا ؟

قال: مَودَّة الرجال.

وقال بعض الحكماء: من علامة الإقبال اصطناع الرجال؛ أي اصطناع الأصدقاء من الرجال، قال الأفوه الأودي وهو من حكماء العرب:

بَلَوتُ النَّاسَ قرناً بَعد قَرْنِ ... فَلَم أرَ غيرَ خَتَّالٍ وقـــالي

وذقـتُ مـــرارةَ الأشيـاءَ جمعاً ... فمـــا طعمُ أمرَّ مـــن السُّؤالِ

ولـــم أر في الخطوبِ أشدُّ هَـولاً ... وأصعبُ مِـــن مُعـاداةِ الرِّجـالِ

روى الربيع عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله:

لما عفوتُ ولم أحقِـد على أحَـدٍ ... أرحْـتُ نفسيَ من همِّ العـداوات

إنّي أُحيّي عـدوِّي عنـدَ رُؤيَتِـه ... لأدفعَ الشَّـــرَّ عني بالتحيات

---

(١٣٨) رواه بن أبي الدنيا

وأُظهِرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبغِضُهُ ... كأنَّما قد حشا قلبي مَوَدَّات

الناسُ داءٌ دواءُ النَّاسِ قُربُهُمُ ... وفي اعتزالِهم قطعُ المودات

قال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لاتجوز إلا بالتغافل، وقال شبيب بن شيبة: الأريبُ العاقِلُ هو الفَطِنُ المُتَغافِل. قال الشاعر:

ليس الغَبِيُّ بسيدٍ في قومِهِ ... لكنَّ سيدَ قومِهِ المُتَغابي

وقال أخر:

وإذا عَجَزتَ عن العَدوِّ فدارِهِ ... وامزحْ لَهُ إنَّ المِزاحَ وِفاقُ

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

أُحِبُّ من الإخوانِ كلَّ مُواتي ... وَكُلَّ غضيضِ الطَّرفِ عن عثراتي

فَمَنْ لي بهذا ؟ ليتَ أَني أَصَبْتُهُ ... فقاسَمتُه مالي مِنَ الحَسَناتِ

قالت امرأة طلحة بن عبد الرحمن بن عوف له وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيتُ قوماً أَلأَمُ مِنّ إخوانِك؟

قال: مه[١٣٩]، ولم ذاك؟

قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك وإذا أعسرت تركوك،

---

(١٣٩) مه: كفي واسكتي

قال: هذا والله من كرمِهِم؛ يأتوننا في حال القوة بنا عليهم، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم.

فانظر الى هذا الرجل الكريم كيف تأوَّلَ قبيحَ فعلهم وجعله حسنا. وجعل ظاهرَ عقوقِهِم وفاءً، وهذا محض كرم منه، وهكذا ينبغي لذوي الفضل أن يتأولوا هفوات إخوانِهم. وقال بعض الشعراء:

مادمتَ حياً فدارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ فإنَّمــا أنــتَ في دارِ المُداراةِ

مَنْ يَدرِ دارى ومن لم يدرِ سوف يُرى عمَّا قليلٍ نَديماً للنَّداماتِ

وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال "أُمِرْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أُمِرْتُ بِالصَّلاةِ المَفْرُوضَة."(١٤٠)

وإن كانت مداراة الناس؛ الأصدقاء منهم والأعداء مطلوبة، ومقاربتهم مندوبه، إلّا أن هذا لا يعني أن لا تكون منهم على حذر، وخصوصاً الأعداءَ منهم، فإن العداوةَ إذا استَحكَمت في الطِّباعِ صارت طبعاً لا يزول، وجبلةً لا تستحيل، وإنّما يَندَفِعُ بالتآلفِ ضرَرُها كالنَّارِ يندفِعُ بالماء احراقُها.

---

(١٤٠) رواه ابن أبي الدنيا

الفصل الثاني عشر

السخاء من مقومات الرجولة

الفصل الثاني عشر

السخاء من مقومات الرجولة

سُئل الامام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه عن السخاء فقال: السخاء ما كان منه ابتداء أما ما كان عن مسألة فحياءٌ وتكرُّم. وقال بعض الحكماء: أجلُّ النَّوال، ما وصلَ قبلَ السؤال.

وقال آخر: السخاءُ أن تكونَ بمالِك مُتبرِّعاً، وعن مالِ غيرِكَ مُتَوَرِّعاً،

وسُئل أكثم بن صيفي عن السخاء فقال: السخاءُ حُسْنُ الفِطنَة، واللؤمُ سوءُ التَّغافُل، وقال بعض الشعراء:

وفتى خلا من مالِهِ ... ومن المُروءَةِ غيرُ خالِ
أَعطاكَ قبلَ سؤالِهِ ... فَكفاكَ مَكروهَ السؤالِ

وقال بعض الحكماء: السخاءُ سخاءان: سخاؤك عَمَّا بيدِ غيرِك، وعطاؤُك لغيرك. ويقعُ العطاءُ على وجهين: أحدُهما ما ابتدأَ به الإنسانُ من غيرِ سؤالٍ، والثاني ما كان عن طلبٍ وسؤال. وقد قيل: لا يَتِمُّ السخاءُ بِبَذلِ ما في يدِكَ حتى تسخو نَفْسُكَ عَمَّا بيدِ غيرِك.

وحكي أن الله سبحانه وتعالى أوحي إلى سيدنا إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام: أتدري لما اتخذتك خليلا؟ قال: لا يارب، قال: لأني رأيتُك تُحِبُّ أن تُعطي ولا تُحب أن تأخذ.

ومـن كلامه صلـى اللّه عليه وآله وصحبه وسلـم: "السخي قريب من اللّه، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من اللّه، بعيد مـن الناس، بعيد مـن الجنة، قريب من النار، ولجاهلٌ سخيّ أحب إلى اللّه من عابد بخيل."(١٤١)

وروي أن رجـلا أتى النبي صلـى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه: مُرني بعمـلٍ يُحِبُّنـي اللّهُ عليه ويُحبني الناس، فقال صلـى اللّه عليه وسلم: "ازهد في الدنيا يُحبُّك اللّهُ، وازهد فيما في أيدي النَّاسِ يُحِبُّك الناس."(١٤٢)

وقال أيوب السختيـاني: لا يَنْبُلُ الرجلُ(١٤٣) حتى يكونَ فيه خصلتان: العِفَّةُ عن أموالِ الناسِ، والتَّجاوُزِ عنهم.

وقيل أن كسرى كتب إلى ابنه هرمز: يا بُني استقل الكثيرَ ممّاتُعطي، واستكثر القليلَ مما تأخذ؛ فإنَّ قُرَّةَ عُيونِ الكِرامِ في الإعطاءِ، وسرورَ اللئامِ في الأخذ.

حد السخاءِ والإسراف

ورغمَ ما قيل في مدحِ السخاءِ إلّا أنّ العطاءّ بلا سببٍ ولا مُسَوِّغٍ، يُعَدُّ خروجاً عـن حدِّ السخـاءِ المحمودِ إلى الإسـرافِ أو التبذير المذموم؛ فـإذا أعطى غيرَ المستَحِـقِّ فقد يَمنَـعُ المُستَحِق، فالإسرافُ هو الجهلُ بمقاديـرِ الحقوقِ أي سوءُ

(١٤١) مجموع الحبيب عبد اللّه بن حسين بن طاهر باعلوي، ص٦٥

(١٤٢) سنن ابن ماجه

(١٤٣) يَنْبُلُ: يصيرُ نبيلاً

التقديـرِ لمقدارِ العطاءِ، وحسبُك ذمـاً للمرءِ إذا كانت أفعالُـه تَصدُرُ عن غيرِ تَمييـزٍ، وتوجـد لغـيرِ علَّة، وقد قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٤٤)

فنهى سبحانه وتعالى عن البخل وكنى عنه باليد المغلولة إلى العنق أي اليد التي لا تُعطي، ونهى أيضاً عن الإسراف وكنى عنه ببسط اليد. فدل ذلك أن كلا الأمرين البخل والإسراف مذمومان؛ لأن العطاء والمنع إذا كانا لغير علة أفضيا إلى قلةِ شُكرِ الشخص المعطَى؛ لأنَّه أُعطِيَ شيئاً غيرَ مُحتاجٍ إليه، مما يؤدي إلى عدم الشكر، وإلى الذمِّ من الشخص الذي مُنِعَ من العطاءِ؛ لأنَّ غيرَهُ فُضِّلَ عليه رغم حاجته، فصار ذلك مفضيا إلى اجتلاب الذم، وليس فيما أفضى إلى إحباطِ الشكرِ أو اجتلابِ الذَمِّ خيرٌ يرجى. قال الشاعر:

وكـــان المـــال يأتينـــا فَكُنَّـــا نبـذِّرُهُ وليس لنـــا عقـــولُ
فلمـــا أنْ تـــولّى المـــالُ عنّـا عقَلنـــا حـينَ ليس لنـا فضـولُ

وعلى أي حال ينبغي أن يكون العطاءُ للّه تعالى، ابتغاءً لِما عندَ اللّهِ عزَّ وجل، وأمّا إذا التَمَسَ المُعطي بعطائِه الشكرَ والثناءَ من الناسِ فقد خرجَ بعطائِه عن حكمِ السخاءِ ويكونُ بذلك طالباً للسُّمعَةِ والجزاءِ؛ فإن طلبَ السمعةِ يدخلُ في الرياءِ، وإن طالبَ الجزاءِ يكونُ تاجراً مُتربِّحاً، وفي هذين من الذمِّ ما ينافي السخاء.

---

(١٤٤) الإسراء - ٢٩

نخلص مما سبق أنَّ السخاءَ بذلُ ما يحتاجُ إليهِ الناسَ عندَ وجود الحاجةِ، وأنْ يوصَل إلى مستحقِّه في الوقت المناسب وبالقدر الكافي. ولعل بعضُ من يُحب أن يُنسَبَ إلى الكرمِ يُنكرُ حدَّ السخاءِ، ويجعلُ تقديرَ العطيةِ نوعاً من البخل متذرِّعاً بمقولة "الجود بذل الموجود"، وهذا تكلُّفٌ يفضي إلى الجهل بحدود الفضائل، لأن الفضائل كما ذكرنا سابقاً هيئات متوسطة بين رذيلتين. ولو كان السخاء بلا حدود ولا ضوابط، لما كان للإسراف معنى ولا للتبذير موقع، وقد جاء الشرع الشريف بذمهما والنهي عنهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾. أي ابسطها ولكن ليس كل البسط؛ وهذا يعني أن لبسط اليد حدود.

وقـال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾[145]

وهـذا إرشـاد ربـاني بإعطاء كلٍّ مـن المذكوريـن في الآية الكريمة حقـه أي ما يستحقـه من الإحسان، ولكن اجتنب التبذيـر، والتزم بحد ومقدار الاستحقاق المتعارف عليه.

فقـد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أنا وصلحاءُ أُمَّتي بُرَآءُ من التكلُّف." [146]

(١٤٥) الإسراء - ٢٦

(١٤٦) رواه الطبراني، وأبو نعيم في الحلية

الفصل الثالث عشر

الكسب من مقومات الرجولة

الفصل الثالث عشر

الكسب من مقومات الرجولة

هنالك حاجات أساسية للإنسان لا بد له منها حتى تستقر حياته على وجه مقبول في المجتمع ومن أهمها حاجته للطعام والشراب والملبس والمسكن، وهي حاجات أساسية لا يستغنى عنها الإنسان وبدونها لا تستقيم حياتُه، ولا يستقيم له دينُه، وإذا تعذر شيءٌ منها لحقَه من النقص والاختلال في نفسه ودينه ودنياه بقدر ما نقصه من تلك الحاجات الضرورية لحياته.

وحيث أنَّ موادَّ الاحتياجات الضرورية مطلوبة من كافة أفراد المجتمع؛ فإن الحصول عليها يحتاجُ إلى عناء وجهد، واتخاذ الأسباب الموصلة إليها، وقد تنوعت وسائل العيش بتنوع احتياجات الإنسان وتنوع المهن الاجتماعية واختلاف طبقات المجتمع، وإن الله سبحانه وتعالى قد وزع وسائل العيش وأسبابه على أفراد المجتمع الإنساني، وأرشدَ كلَّ فِئَةٍ إلى المهن المناسبة لتحقيق ما يحتاجه المجتمع من الإنتاج الزراعي والصناعي وغيره.

قال تعالى على لسان سيدنا موسى عندما سأله فرعون عن ربه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(١٤٧) وقد اختلف المفسرون في تأويل ذلك، قال قتادة: أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه، وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته، قال محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القران: إن الله تعالى يُعرف بصفاته فهو خالق العالم الذي

---

(١٤٧) طه – ٥٠

خصَّ كلَّ مخلوقٍ بهيئتِهِ وصورتـه؛ أي أعطى خليقتَه كلَّ شـيءٍ يحتاجون إليه ويرتفقـون به ثم هداه لما يصلحه، وقال فخر الدين الرازي في التفسير الكبير: أي أنه سبحانه وتعالى أَعطى كلَّ شيءٍ الشكلَ الذي يطابق منفعته ومصلحته.

وخلاصة القول أن الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمته خلق جميع المخلوقات في هذا العالم وأعطاها التركيبَ والقوالبَ والأبدانَ، وأودع في كلٍّ منها القوى المُدرِكَةَ والمحرِّكَةَ والإلهامَ والهدايةَ إلى ما يُصلِحُ شئونَها، ويُحققُ مصالحَها في الحياة، وهذا الأمرُ واضحٌ في عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان.

السعي للكسب الحلال واجب:

فالإنسان في هذا المجال شأنه شأن سائر المخلوقات ينبغي أن يسعى ويعمل ويستعمل الوسائل والأسباب التي منحها له الحقُّ سبحانه وتعالى، وهداه وأرشده إلى كيفية استخدامها لتحقيق مصالحه في هذه الحياة.

وروي عنـه صلى الله عليه وسلم : "التمسـوا الرزق في خبايا الأرض."(١٤٨) قـال بعض المفسرين: أي الـزرع والمعنى أعم من ذلـك والله أعلم، وحكي عن المعتضـد أنـه قال: رأيت علي بـن أبي طالب رضي الله عنـه في المنام. يناولني المسحاةَ (المجرفة) وقال خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض،

وقال صلى الله عليه وسلم: "تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث"(١٤٩).

---

(١٤٨) رواه أحمد والبيهقي

(١٤٩) رواه البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة"

أي في التجارة والزراعة.

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر رحمه الله: عليك رحمك الله إذا أردت الدخول في أسباب المعاش بحسن النية؛ فإن طلب الحلال فريضة على كل مسلم، واقصد بذلك الاستعانة على الدين، وإعفاف نفسك ومن عليك مؤونتهم عن المسألة وعن الطمع فيما في أيدي الناس، ولا يشغلك معاشك عن معادك، ولا عن طلب العلم الذي هو فرض عين عليك، ولا عن أداء فرائض الله في الجماعة، بل ولا عن ذكر الله وأنواع القربات.(١٥٠)

قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(١٥١)

أي أن ممارستهم للتجارة والبيع لا تلهيهم عن ذكر الله. فهم في حال بيعهم وتجارتهم ذاكرين لله؛ فلا يَغُشُّون، ولا يكذبون، ولا ينفقون السلعة باليمين الكاذبة، ولا يحتكرون الطعام أو ما يلزم الناس، ويتعاملون مع الناس بالقسط والعدل، ولا يخونون الأمانة؛ لأنهم في حالة مراقبة لله سبحانه وتعالى، ويعلمون أن الله سبحانه يراهم في حال بيعهم وفي حال تجارتهم.

والحذر كل الحذر من الكسب الحرام؛ فإنه خبيث ولابركة فيه. قال صاحب "الزبد":

وطاعةٌ مِمّن حراماً يأكلُ ... مثل البناءِ فوق موجٍ يُجعلُ

---

(١٥٠) المجموع، ص٣٦-٣٧

(١٥١) النور - ٣٧

فالذي يأكل الحرام لا يثبت له ثواب طاعاته وعباداته.

فمن أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى.

الكسب المحمود:

والقـدر المحمود من الكسب هو ما كان على قدر الكفاية والحاجة وقد روي عـن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم أنه قـال: "أوحى الله تعـالى إليَّ كلماتٍ فدخلـنَ في أذني ووقـرن في قلبـي: "من أعطـى فضل ماله فهو خـيرٌ له، ومن أمسك فهو شرٌ له، ولا يلومُ اللهُ على كفاف."[١٥٢].

وقال الحسن: ليس الزهد بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يد نفسك، وأن تكون حالك في المصيبة، وفي غير المصيبة سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء.

توقي الكسب الحرام:

ومن الضروري أن يتوقى الكسبَ الحرام، وقيل: شرُّ الأموالِ ما أخذتَه من الحرامِ وصرفتَه في الآثام، وكان الإمام الاوزاعي رحمه الله كثيرا ما يتحدث بالأبيات التالية:

المـال يُفقـدُ حلُّـه وحـــرامُـــهُ ... يومـــاً ويبقى بعـدَهُ آثامُـهُ

لـــيس التقيُّ بمتـــقٍ لإلهِـهِ ... حتـى يطيـبَ شرابُـــه وطعامُـهُ

---

(١٥٢) مصنف عبد الرزاق

وَيَطيبُ ما يجني ويكسب أهلُهُ ويطيب من لفظِ الحديثِ كلامُهُ
نطقَ النبيُّ لنا به عن رَبِّهِ فَعَلى النَّبِيِّ صلاتُهُ وسلامُهُ

عدم التقصير في طلب الحلال:

ولا ينبغي أن يُقصِّرَ الرجلُ في السعي لطلب الرزق الحلال الذي يكفيه ويسدَّ حاجَتَهُ وحاجَةَ عيالِه، بحيث يُوفِّرُ لهم عيشاً كريماً لا يُعوزُهم الحاجةَ إلى الآخرين.

فإذا قصَّرَ عن طلبِ الرزق بسبب الكسلِ وقلَّةِ الحيلَةِ فهذا ليس من شيم الرجال، وفيه مُخالفةٌ للهدي النبويِّ، أما إذا حصل التقصيرُ بذريعةِ التوَكلِ على اللّهِ وأنَّ الرزقَ مقسومٌ وكلٌّ يأخذُ نصيبَه، فهو استشهاد في غيرِ موضعِهِ، وخروجٌ عن حدِّ التوَكُّل الشرعِيّ. ومثلُ هذا المرء قد تركَ الحزمَ والتمسَ لنفسِهِ أعذاراً واهيةً، واختفى وراءَ مفاهيم غير سليمة، وقد ذُكرَ عندَ النبيِّ رجلٌ بالخير، قالوا: يا رسولَ اللّهِ خرجَ معنا حاجاً فإذا نزلنا منزلاً لم يزَل يصلّي حتى نرحل، فإذا ارتحلنا لم يزَل يذكر اللّه عزَّ وجل حتى ننزل، فقال صلى اللّه عليه وسلم: "من كان يكفيه عَلَفَ ناقتِهِ وصنعَ طعامِهِ؟ قالوا: كلُّنا يا رسول اللّه، قال: "كلُّكُم خيرٌ مِنْهُ". (١٥٣)

(١٥٣) أخرجه البزار والطبراني

قال الحبيب عبد الله الحداد رحمه الله:

فــدع العجـز والتعلــل واسللْ ... صارم العـزم يا لـه مـن حسامِ

طلب الحلال للقيام بمصلحة العيال:

وإذا كان التقصيرُ في طلب الرزق زهداً وتقنعاً؛ فإن كان مثلُ هذا صادقاً في دعواه، وخوفاً على نفسه من بوائقِ الغنى والثروة وما يترتب عليها من تبعات، فآثرَ الفقرَ على الغنى زجراً لنفسِه عن ركوب الهوى والميلِ للشهوات، فقد يكونُ على خيرٍ إذا لم يكن له عيال، وأما إذا كان له عيال؛ فينبغي أن ينظرَ في مصلحةِ عيالِه وهل يطيقون تحملَ شظفَ العيش ؟ أم أنهم سيفتتنون ويضيعون في المجتمع ؟ ومن المعروف في القواعد الفقهية أن درء المفاسد خير من جلب المنافع. فالقيام بما فيه مصلحة العيال أولى.

الفقر والغنى أيهما الأفضل:

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من نُبْلِ الفقرِ أنك لا تجد أحدا يعصي اللهَ ليفتقر، فاخذه محمود الوراق فقال:

يـا عائـب الفقـرِ ألا تـزدجــر ... عيبُ الغِنـى أكثرُ لــو تعتَبر

مـن شـرفِ الفقـرِ ومـن فضلِـه ... علـى الغِنـى إن صحَّ منك النَّظَر

أنّــك تَعصـي لتنـالَ الغِـنــى ... ولسـتَ تَعصـي اللهَ كـي تَفتَقِـر

وقال ابن المقفع:

دليلُك أنَّ الفقرَ خيرٌ من الغِنى وأنّ قليلَ المالِ خيرٌ من المُثري
لقاؤك مخلوقاً عصى اللهَ بالغِنى ولم ترَ مخلوقاً عصى اللهَ بالفقرِ

والزهد في طلب الحلال يصح ممن نصح نفسه فأطاعته، وانقادت له وهان عنادها، وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير، ورضي بالكفاف وألزم نفسه بالعفاف.

وأما من أعرضت نفسه عن النصيحة، وجمحت به ولم تنقاد له، فالزهد لا يصلح له إلا إذا روضها بالتدرج حتى تصل إلى غايتها إذا أسعفه الحظ، وقليل ما هم. والغالب أن طلب الحلال لتوفير الحاجات الأساسية للعيش الكريم حسب العرف والعادة السائدين في المجتمع الذي يعيش فيه المرء هو الأسلم والأحكم. والعرف والعادة يتغيران بتغير الأزمنة والأمكنة والناس، ولكل زمان دولة ورجال. وينبغي أن يحتكم المسلم إلى حكماء زمانه.

طلب المال لتلبية الشهوات:

وإذا كان طلب زيادة المال رغبة في التوسع في الشهوات فإن صاحبَها على خطرٍ عظيم؛ لأن كثيراً من الشهوات لا يتوصل إليهاإلا بالمال، وحيثُ أن الشهواتِ لا حدود لها؛ يصبح طلبُه للمالِ لا حدودَ له، ويصيرُ كالبهائم التي تتبع شهواتِها بلا عقلٍ رادع، وتُستدام معاناتُه وكدُّه وتعبُه،

ومن أراد اللّه به خيراً حالَ بينَه وبينَ شهوتِه، وإذا أراد به شراً وكلَه إلى نفسِه.

قال الشاعر:

وإنَّـك إن أعطيـتَ بطنَـكَ هَمَّـهُ   وفرْجَـكَ نـالا مُنْتَهـى الـذّمِّ أجمعا

حكم الشِّبَع:

وإذا ظفرت بالحلالِ؛ فتناوله بأدبٍ ونيةٍ صالحةٍ، وكُلْ ما دونَ الشِّبعِ، فإنَّ الشبع من الحلال مبدأ كلِّ شرٍّ، فكيف من الحرام؟!

وفي الحديث عن المقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: ما ملأ آدميٌّ وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه .." (١٥٤)

قال الحكماء: الشِّبعُ سببُ كلّ علَّةٍ وداء.

صرف المال في وجوه الخير:

وأما إذا كان طلبُ زيادةِ المالِ لصرفها في وجوهِ الخيرِ واصطناعِ المعروفِ وإغاثَةِ الملهوفِ فهذا أمرٌ محمودٌ إذا اكتُسِبَ من الحلالِ وابتُعِدَ عن شبهاتِ المكاسِبِ، وأُحسِنَ التقديرُ في مصارف المال. وقد قيل: المالُ آلَةُ المكارم، وعونٌ على الدِّينِ، ومُتَألَّفُ الإخوانِ، ومُعينٌ على المَكرُماتِ.

(١٥٤) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه

وقيلَ أيضا: الدراهم مراهم؛ لأنها تداوي كلَّ جرحٍ، ويَطيبُ بها كلُّ صُلحٍ،

وقال بعضُ الحكماء: من أصلحَ مالَهُ فقد صانَ الأكرَمين: الدِّينُ والعِرض.

الادخار للورثة:

وأما إذا كان طلبُ زيادة المال ادخاراً للوَلدِ والوَرَثة، فيضِنُّ بها على نفسِه، ويشقى في جمعِها، ويُحاسَبُ عليها يوم القيامةِ، ويتحمَّلُ أوزارَها، ومع هذا فهو مذموم بسوءِ ظنِّه باللّهِ، ومحرومٌ من الاستفادةِ من ماله، وحَرِيٌّ بمثلِ هذا الشخص أن يؤوبَ إلى رشدِهِ ويستيقظَ من غَيِّه، ويتعرَّفَ على حقوق اللّهِ في مالِه وحقوقِ الفقراءِ والمساكينِ، ويُحَكِّم شرعَ اللّه في كل ذلك.

طلب المال مكاثرة ومباهاة:

وأما إذا كان طلبُ زيادة المال مكاثَرَةً ومباهاةً بين الناس وتلبيةً لشهوةِ حُبِّ المالِ فهو أسوأُ الناسِ حالاً وأشدُّهم حرماناً وكان ممن يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا يصرفونها في سبيل اللّه، وفي هذه الحالة ينطبق عليه قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[155] هذا بالإضافة الى أن الذين يكنزون الأموال يصابون بالحرص والشح فيسلبون فضائل النفس، ومكارم الأخلاق، ويسلبون القناعة والمروءة.

الغنى في القناعة:

قال بعض الحكماء: ان من قنع كان غنياً وان كان مقترا، ومن لم يقنع كان فقيراً وان كان مكثرا. وقيل أن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال:

---

(١٥٥) التوبة – ٣٤

أفـادتنـي القنـــاعـةُ كـلَّ عـزٍّ ... وأي غنـيً أعـزُّ مـن القنـاعـــة
فصيرهـــا لنفســك رأسَ مــــالٍ ... وَصَـيِّر بعدَهـا التقـــوى بضاعـة
تحـرز حـين تغنـى عــــن بخيـلٍ ... وتنعـمُ في الجنـانِ بصبـرِ سـاعـة

فاقنع بما قسم الله لك، ولا تطمع وتحرص فتتعب قلبك وجسمك، ولا يصل إليك إلا ما كتب لك.

قال الإمام الحبيب عبد الله بن علوي الحداد رحمه الله:

إنَّ القنـاعـةَ كنـزٌ ليسَ بالفـانيْ ... فاغنمْ هُديتَ أُخَيَّ عَيشَها الهاني
وعِشْ قنوعـاً بـلا حِرْصٍ ولا طَمَعٍ ... تَعِشْ حَميـداً رَفيعَ القَـدْرِ والشَّانِ
ليسـ الغنـيُّ كثيرَ المالِ يَخزِنُـهُ ... لحـادث الدَّهـرِ أو للوارثِ الشَّـاني
إنَّ الغَنـيَّ غَنـيُّ النَّفسِ قانِعُهـا ... مُوَفَّـرُ الحَـظِّ مِـنْ زُهـدٍ وإيمـانِ
مُـؤَيَّـدٌ راسِـخٌ في العـلـمِ مُتَّبِـعٌ ... إثـرَ الرَّسـولِ بإخلاصٍ وإحسانِ

الفصل الرابع عشر

لا رجولة بلا حياء

الفصل الرابع عشر

لا رجولة بلا حياء

الحياء هو الحشمة والانقباض عن كل ما يستقبح، وهو صفةٌ في النفس تمنعً من ارتكابِ القبائح والمعاصي، وتصونُ النفسَ عن كلِّ ما يُشينُها، ويُسيءُ إلى سمعتِها. والحياءُ من صفاتِ النفوسِ الأَبِيَّةِ الكريمةِ الخيرةِ ذوات الشهامةِ والمُروءَةِ والكرم.

وروي عـن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال: "إن لـكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء."(١٥٦)

وقـال صلـى الله عليـه وسلم: ما كان الفحشـ في شيء إلا شانـه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه"(١٥٧)

قـال صلى الله عليه وسلم في الحديث الـذي رواه أبو سلمه عن أبي هريرة رضـي الله عنه: "الحياءُ من الإيمان، والإيمانُ من الجنة، والبذاءَةُ من الجفا، والجفا في النار."(١٥٨).

(١٥٦) رواه ابن ماجه

(١٥٧) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه

(١٥٨) أخرجه أحمد والنسائي والترمذي

وروى حسان بن عطية عن أبي أمامه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "الحياءُ والعَيُّ شعبتانِ من الإيمان، والبذاءةُ والبيانُ شعبتان من النفاق."[159] العَيُّ هنا بمعنى الصمت، والبيانُ بمعنى التَّشَدُّق،

وقال بعضُ الحكماء من كَساهُ الحياءُ ثوبَه لم يرَ الناسُ عيبَه، وقال بعضُ البلَغاءُ: حياةُ الوجه بحيائِه، كما أنَّ حياةَ الغرسِ بمائِه،

قال بعضُ الحكماء: إن الخيرَ والشرَ معانٍ كامِنَةٍ في النفسِ، تُعْرَفُ بسِماتٍ ظاهرَةٍ تَدُلُّ عليها.

وإن الحياء من السمات الدالة على معاني الخير الكامنة في النفس.

قال الشاعرُ:

لا تسأل المَرءَ عن خلائِقِهِ ... في وجهِهِ شاهِدٌ مِنَ الخَبَرِ

وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا قَلَّ ماءُ الوجهِ قَلَّ حياؤُهُ ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قَلَّ ماؤُه

حياؤُكَ فاحفَظ عَليكَ وإنَّما ... يَدُلُّ على فِعلِ الكريمِ حياؤُه

الحياءُ يصدُّ عن فِعلِ القبائح أو التَّحدُّث بها، أو الاستماعِ إليها ويزجرُ عن المحظورِ، وقد روي أن علقمةَ بن علاثة قال: يا رسولَ اللّه عظني، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "استحيي من اللّهِ استحياءُكَ من ذوي الهَيْبَةِ من

(١٥٩) أخرجه الترمذي وأحمد والحاكم

قومِك."[160]. فإن الإنسانَ العاقل يستحي ويتحشم من فعل المعاصي والآثام أمام الرجل الوقور ذو الهيبة والاحترام، وهكذا ينبغي على من عنده شيءٌ من الذوقِ والأدبِ والمروءةِ أن يُستَحيي من الله، ولا يفعل المعاصي والآثامَ على مرأىً من الله سبحانه وتعالى ملك الملوك، خالق السموات والأرض، الذي يعلم السرَّ وأخفى.

وروى بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: "استحيوا من الله عز وجل حقَّ الحياءِ"

فقيل يا رسول الله، كيف نستحيي من الله عزَّ وجَلَّ حقَّ الحياءِ؟

قـال: "من حفظ الرأس وما حوى، والبطنَ وما وعـى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموتَ والبلى؛ فقد استحيا من الله عزَّ وجلَّ حقَّ الحياء."[161]

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:"قِلَّةُ الحياءِ من الكفرِ." [162]

وقال صلى الله عليه وسلم: "الحياءُ نظامُ الإيمان، فإذا انحَلَّ نظامُ الشيءِ تبدَّدَ ما فيه وتفرَّق."[163]

---

(١٦٠) أخرجه ابن عدي في الكامل

(١٦١) أخرجه الترمذي والحاكم

(١٦٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا

(١٦٣) ذكره ابن عبدالبر

ومن فوائد الحياء أنه يكفُّ أذى الناسِ عنك؛ لأنه يدعو إلى تركِ المجاهرةِ بالقبيحِ فيكُفُّ ألسنة الآخرين عنك. وقد روي عن السلف الصالح لهذه الأمة أن من تقوى اللّهِ اتقاءُ الناس، فلا يجاهر بالمعاصي إلا الفاجر الذي لا مُروءة له.

قيل لعمر بن عبد العزيز: اذا ذهب الحياء ذهب نصف الدين.

قال: لا بل اذا ذهب الحياء ذهب الدين كله.

وقد روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: "إن مما أدرك الناسُ من كلامِ النُّبوَّةُ الأولى، يا ابنَ آدَم إذا لم تستحي فاصنع ما شِئت."(١٦٤). وقال بعض العلماء: في معنى هذا الحديث أنَّ من لم يستحي، دعاهُ تركُ الحياءِ إلى أن يعملَ ما يشاءُ من المعاصي والقبائح والأفعال المحرمَةِ، ما يمنعه منها أي رادع يردعه عن أفعاله القبيحة، فهو نهي عن فعل المعاصي في صورة أمرٍ يحمل كثيراً من المبالغة في الوعيد والتهديد على من يفعل المعاصي.

قال صلى اللّه عليه وسلم: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبةَ له."(١٦٥)،

وروي أن إمام التابعين الحسن البصري رضي اللّه عنه كان يقولُ: مروءةُ الرَّجُلِ: صِدْقُ لسانه، واحْتِمَالُهُ مَؤُونَةَ إخوانه، وبَذْلُهُ المعروفَ لأهل زمانه، وكَفُّهُ الأذى عن جيرانه.

---

(١٦٤) رواه البخاري

(١٦٥) رواه البيهقي

ومن متطلبات الحياءِ: العفةُ، وصونُ النفس في الخلوات، قال بعض الأدباء:

من عمل في السرِّ عملاً يستحي مِنْهُ في العلانيةِ؛ فليس لِنَفْسِه عنده قَدْرٌ،

قال بعض الشعراء مفتخراً:

فَسرِّي كإعلاني وتلكَ خليقَتي   وظُلمةُ ليلي مثلَ ضوء نهاري

فالحياءُ دليلٌ على حُسنِ السريره وعلى فضائل النفس وشرفها وعلى معاني الخير والكرم فيها، قال الشاعر:

واني ليثنيني عن الجهل والخنا   وعن شتم ذي القربى خلائقُ أربعُ

حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وإنَّني   كريمٌ ومثلي مَنْ يَضرٌّ وينفعُ

ويقال أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثل بهذا الحديث:

وانَّني لأرى من لا حياء له   ولا أمانة وسط القوم عريانا

الفصل الخامس عشر

الحِلْمُ سيِّدُ الأخلاق

الفصل الخامس عشر

الحِلْمُ سيِّدُ الأخلاق

الحِلْمُ خُلُقٌ كريم يضبط النفس عند هيجان الغضب، ويَنتُجُ الحِلمُ عن عدد من الأخلاق الكريمة التي تتصف بها النفوس الشريفة منها: الرحمة، والرفق بالجهال وسعة الصدر، والعفو عند المقدرة، والترفع عن السباب، وعلو الهمة، وكمال المروءة، وصيانة النفس عن مواقف الريب، والكرم، والتفضل، والوفاء بالعهد. فهي جملة من الاخلاق التي تبعث على ضبط النفس عند هيجان الغضب، ولذلك قيل الحلم سيد الأخلاق.

وكان عبد الله بن العباس رضي الله عنهما يقول: "من حَلُمَ سادَ ومَنْ تَفَهَّمَ ازداد."

وقالت الحكماء: من غرسَ شَجرةَ الحِلْم، اجتنى ثمرةَ السِّلم، وما ذَبَّ عن الأَعراض كالصفحِ والإعراض؛ أي أن الصفح والمسامحة والإعراض عن الجاهل وغض الطرف عن الهفوات أفضل وسيلة للدفاع عن العرض وحمايته.

وقال بعض الشعراء:

أُحِــب مكارمَ الأخـــلاقِ جهدي ... وأكرهُ أن أعيبَ وأن أُعـــابَ
وأصفحُ عـن سبـابِ الناسِ حِلْمـاً ... وشـرُّ الناسِ مَـن يهـوى السِّبابـا

ومن هابَ الرجالَ تَهَيَّبوهُ ومَن حقرَ الرجالَ فلن يُهابا

فالحِلْمُ من أشرف الأخلاق، لما فيه من سلامة العِرْض وراحة الجسد.

شدة الحلم تزيد في العمر؛ فالحليم يطول عمره؛ لأن الغليان والحقد يقصر العمر؛ أما الحليم فيبقى صحيح الجسم ويطول عمره.

وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "إذا قدرت على عدوك، فأجعل العفو شكرا للقدرة عليه."

قال بعض الحكماء: ليس من الكرمِ عقوبةَ مَن لا يجدُ امتناعاً مِنَ السَّطوةِ.

وإن الترفُّعَ عن مجاراةِ السَّفيهِ مِنْ كمالِ المُروءَةِ، وإن الإغضاءَ عن الجاهل من صيانة النفس وكرم الأخلاق والترفع عن عدم النزول إلى مستوى الجهال وبذيئي الكلام،

قال الشاعر:

أغَرَّكُمُ أنّي بأحسنِ شيمةٍ بصيرٌ وأني بالفواحشِ أخرَقُ
وإن تَكُ قد سابَبْتَني فَقَهرتَني هنيئاً مريئاً أنتَ بالفواحشِ أحذقُ

حكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط الّا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال، إن كان أعلى مِنّي عرفتُ قدرَه، وإن كان دوني رفعتُ قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلتُ عليه، فأخذه الخليل، فنظمَه شعرا فقال:

سألـزمُ نفسي الصفحَ عـن كلِّ مُذنبٍ … وإن كـثُرت منـه إليَّ الجرائـمُ
فمـا النـاسُ إلّا واحـدٌ مِـن ثلاثَـةٍ … شريـفٌ ومشـروفٍ ومثـلٌ مقـاومُ
فأمـا الـذي فوقـي فأعـرِفُ قـدرَهُ … وأتبـعُ فيـه الحقَّ والحـقُّ لازمُ
وأمـا الـذي دوني فأحلُـمُ دائبـاً … أصـونُ بـه عرضـي وإن لامَ لائـمُ
وأمـا الـذي مثلـي فـإن زَلَّ أوهفـا … تفضَّلـتُ إن الفضلَ بالفخـرِ حاكِمُ

وبهذا المعنى قالت الحكماء: الحِلمُ حجابُ الآفات، من حلِم ساد، ومن عفا عظم، ومن تجاوز استمال القلوب إليه

سئل الأحنف بن قيس بم سدت قومك؟

قال وجدت الحِلم أنصر لي من الرجال.

فلا سؤدد مع الانتقام، فمن انتقم فقد شفى غيظه، فلا يجب حمده.

إن الـذي انتقـم لنفسه لا يستحق الحمـد على فعلته لأنـه شفى غيظه ولم يكظمه؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (١٦٦)

فمن انتقم وشفى غيظه، ليس من المتقين الذين أعدت لهم جنةٌ عرضها السماوات والأرض وليس من المحسنين الذين يحبهم الله تعالى، فلا يستحق الحمد ولا السيادة والرفعة والسؤدد. وينبني على ذلك أيضاً أن الذي ينتقم ليشفي غيظه ويأخذ ثأره لا يحبه الله.

(١٦٦) آل عمران: ١٣٤

أي أن الذي ينتقم لنفسه من عدوه ويأخذ ثأره لم يفعل فعلاً يستحق الحمد عليه، ولا ينبغي حمده على ذلك الفعل.

وروى محمـد بن حـارث الهلالي أن جبريـل عليه السلام نـزل علي النبي صلـى الله عليـه وسلم فقال: "يـا محمد اني أتيتك بمـكارم الأخلاق في الدنيا والأخرة، قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١٦٧)

وروى سفيان بن عيينه أن النبي صلى الله عليه وسلم "حين نزلت هذه الأية الكريمة قال يا جبريل ما هذا؟ قال لا أدري حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل وقال "يا محمد ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن من ظلمك"

قال الشاعر:

لا يبلـغُ المجـدَ أقـوامٌ وإن كَرُمـوا — حتـى يذلُّـوا وإن عـزوا لأقـوامِ

ويُشتَموا فَتـَــرى الألوانَ مُســـفرةً — لا صفـحَ ذُلٍّ ولكـن صفـحَ أَحـلامِ

وكما ذكرنا سابقاً فإن الحِلْمَ عبارة عن ضبط النفس عند هيجان الغضب، فمتى يحق للمرء أن يغضب ومتى ينبغي كبت الغضب؟

قال الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر رحمه الله: الغضب أصل لجملة من الفواحش العظيمة اللازمة والمتعدية قلبية وقالبية:

---

(١٦٧) الأعراف – ١٩٩

منهــا إيذاء المسلم من الكلام القبيح والسب والغيبة والنميمة، بل يجر إلى الضـرب والمعــاداة والمقاطعة، ومنها الكبر لأنه ما غضــب على الإنسان إلا وهو يــرى أنه أعظم منــه. ومنها الدعوى بالعقــل والمعرفة، لأنه مــا غضب عليه إلا لأنــه رأى نفسه أعقل منه وأعــرف. ومنها وهي عظيمة كبيرة أن أراد أن تمشي الأشياء على مراده لا على مراد الله وقضائه وقدره.(١٦٨)

متى يكون الغضب ضرورياً

ولكن الغضب ضروري للدفاع عن المقدسات، وللدفاع عن الأعراض إذا تطاول عليها الأعداء. فإذا فُقِدَ الغَضَبُ عند الاعتداء على حرمات الله أو عند حدوث ما يُغضِب كانَ ذلك خروجاً عن حدِّ الحِلمِ إلى ذُلِّ النفسِ وقِلَّةِ الحَمِيَّةِ.

وقد روي عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: "من استغضبَ ولم يغضب فهو حمارٌ، ومَن استُرضِيَ ولم يرضَ فهو شيطان" ومَن فَقَدَ الغضبُ في الأشياءِ المُغضِبَة، فقد عَدِمَ من فضائلِ النفس: الشجاعةَ، والأَنَفَةَ، والحَميَّةَ، والغيرَةَ، والدِّفاعَ عنِ العَرْض؛ لأنّها خصالٌ مركبةٌ مِنَ الغضبِ، فإذا عَدِمَها المرءُ هانَ بها. وفي مثل هذا المقام قال عمرو بن العاص: أكرموا سفهاءَكم فإنهم يقونَكُم العارَ والشَّنار.

---

(١٦٨) مجموع الحبيب عبدالله بن حسين بن طاهر، ص٢٥٠-٢٥١

وقال مصعب بن الزبير: ما قَلَّ سُفهاءُ قومٍ إلّا ذَلّوا.

قال الشاعر أبو تمام الطائي:

والحـربُ تركـبُ رأسَها في مَشهَـدٍ ... عَـدْلُ السفيـهِ بـه بألـفِ حَليـمِ

وليس هذا القول إغراء بتحكيم الغضب، فالانقيادُ للغضَبِ يُكسِبُ مِنَ الرذائلِ أكثر مما يُكسبُه عَدَمُ الغضبِ مِن الفضائل، ولكنَّ الحليمُ يَكسِرُ ثورةَ الغضبِ بِحَزمِهِ، ويُطفِئُ نارَه بحِلْمِه، ويستعملُ العقلَ والحكمةَ والعدلَ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وعزمه، فيصلُ بحكمتِهِ إلى الفضائلِ ويوكِلُ مَن استَحَقَّ المُقابَلَةِ إلى غَيرِهِ.

قال الشاعر:

إذا أنـت جاريـتَ السَّفيـهَ كما جرى ... فأنـتَ سفيـهٌ مثلُـه غـيرُ ذي حِلْـمِ

ولا تَعضِـبَنْ عِرضَـى السَّفيـــهِ ودارِهِ ... بحِلْـمٍ فإن أعيا عليك فبالصرمِ(١٦٩)

فيرجـوك تـارةً ويخـــشـاك تـارةً ... ويأخـذُ فيمـا بـينَ ذلـك بالحَـزمِ

فـإن لم تَجِد بداً مـن الجهل فاستعن ... عليـهِ بجُهّـالٍ فـذاكَ مِـنَ العَـزمِ

إدارة الأمورِ المُغضِبَة بقدرٍ لا يُنقِصُ مِنَ المُروءة:

وهذا النوع من التفكير والتدبير لا يستعمل إلا حين لا يجد الإنسان سبيلا

(١٦٩) عضبه: طعنه بالرمح، الصرم: القطيعة

إلى اخراج الجاهل ومتاركته، وأما إذا أمكن اطراحه والبعد عنه، فالإعراض عنه أصوب، ليصبح الحِلمُ هو الذي يدبِّرَ الأمورِ المُغضِبَة بقدرٍ لا يُنقِصُ مِنَ المُروءِةِ. يستعمل الرجل الحليم حكمته وعقله وتدبيره في كسر صولة الغضب، وإطفاء ناره، وتهدئة ثورته، ويدير الأمور بهدوء يوصل إلى بر الفضائل ويُبعِدُ عن فعل الرذائل.

وأما إذا انعزلَ الحِلمُ وأصبح الغضبُ سيدَ الموقفِ الذي يدبِّرُ الأمورَ ويقودُ الوقائعَ، يغيبُ وجهُ الصوابِ عن الإنسان ويَضعُفُ رأيُه، وتنقطعُ حُجَّتُه ويَكثُرُ غَلَطُه.

وقـد روي أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أوصني ولا تكثر علي فقال صلى الله عليه وسلم "لا تغضب" (١٧٠)

كيف يسكن الغضب؟

ومما يسكن الغضب ذكر قدرة الله عليك والخوف منه عز وجل، ومنها أيضا ذكر الموت، ومنها أيضا أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من النَّدم،

قال بعض الحكماء: الغضب على مَنْ لا تملك عجزٌ، والغضب على من تملك لؤم،

(١٧٠) رواه البخاري

وقال أخر: إياك وعزة الغضب فإنها تفضي إلى ذلِّ العزيز،

ومنها أيضاً أن يذكر ثوابَ العفو، فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب،

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ينادي منادٍ يومَ القيامةِ مَنْ لَه أجرٌ على الله عز وجل فليقم، فيقومُ العافونَ عن الناسِ، ثم تلا قولَهُ تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (١٧١)

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان: إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر عفا."

(١٧١) الشورى – ٤٠

الفصل السادس عشر

الصدق عماد الرجولة

الفصل السادس عشر

الصدق عماد الرجولة

الصدق جماعُ كلِّ خير، فيه الطمأنينة والراحة والسعادة، وصدق اللسان أول السعادة ومبتداها، قال الحكماء: لاسيفَ كالحقِّ، ولا عونَ كالصدقِ "وقالوا أيضا: الصدقُ سيفٌ لا يُقهَر، ولذلك ما هُزِمَ نبيٌّ قط، لأن الأنبياء صادقون، وقالوا أيضاً: الصادقُ مصونٌ جليلٌ، والكاذبُ مهانٌ ذليل.

وقد روي أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن علي رضي الله عنهما: "دع ما يريبك الى ما لا يريبك، فإن الكذبَ ريبَة، والصدقَ طمأنينَة"[١٧٢]. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١٧٣]؛ أي لا تخلطوا الصدقَ بالكذب.

وعندما جاء وفد نصارى نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى المباهلة، كما جاء في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[١٧٤] ولكنهم هربوا قافلين إلى اليمن ولم يحضروا في الموعد الحدد؛ لأنهم عرفوا أن محمد صلى الله عليه وسلم صادق وأن اللعنةَ ستقع

---

(١٧٢) رواه الترمذي

(١٧٣) البقرة – ٤٢

(١٧٤) آل عمران – ٦١

عليهم إذا باهلوه، فخافوا أن تحلَّ اللعنةَ عليهم، وكان هربهم بمثابة الاعتراف بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه في تبليغه عن الله عزَّوجل.

وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: "أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون كذاباً، قال: لا."(١٧٥)

فالمؤمن لايكذب. وإن العلامةَ الفارقةَ بين المؤمن والكافر هي الكذب. وإن العلامةَ الفارقة بين المذاهب الإسلامية الصالحة والمذاهب الفاسدة هو الكذب، وإن أي مذهب يعتمد الكذب أسلوباً في دعوته فهو مذهب ضال مضل، خارج عن جادة الإسلام السليم الذي أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾(١٧٦)

الكذب من خوارم الشهامة والمروءة

أما الكذب فهو جماع كل شر، وأصل كل مذمة؛ لأنه باب للبهت واتهام الناس بما ليس فيهم، ومدخل للغيبة والنميمة والبغضاء وأساس للعداوات، وأنواع الشرور، ولذلك قيل: مَن قلَّ صدقُه قلَّ صديقُه، والكذب من خوارم المروءة؛ لأن المروءة تدعو إلى الفضائل، وتمنع من فعل القبائح. والكذب من أقبح القبائح رفضه العقل السليم، وحرمه الشرع الحنيف،

(١٧٥) أخرجه مالك في الموطأ والبيهقي في شعب الإيمان

(١٧٦) النحل – ١٠٥

ويكفي الصدق شرفا أنّ الكلَّ يحبُّ أن يُنسبَ إليه، ويُشتهرُ به، حتى لا يرد عليه قول، ولا يلحقه ندم،

قال الحكماء: الحقُّ أقوى مُعين، والصدقَةُ أفضلُ قرين،

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن يضعني الصدق، وقلَّما يضع، أحب إليَّ مِن أن يَرفعني الكذب، وقلَّما يفعل،

وقال صلى الله عليه وسلم: "تحرَّوا الصدقَ وإن رأيتم فيهِ الهلكةَ فإن فيه النجاة، وتجنبوا الكذب، وإن رأيتم فيه النجاة، فإن فيه الهلكة"(١٧٧).

وقال الحكماء: الصدقُ منجيك وإن خفته، والكذبُ مرديك وإن أمنته،

قال الشاعر:

عود لسانك قول الصدق تحظ به — إن اللسان لما عودت معتادُ

مُوَكلٌ بتقاضي ما سَنَنَتَ لَهُ — في الخيروالشرِفأنظر كيف ترتادُ

ومن دواعي الصدق العقل السليم الذي يدعو الى فعل المستحسنات ويمنع من فعل المستقبحات، ومن دواعي الصدق؛ الدين القويم؛ لأن الشرع لا يأتي بإباحة ما حظره العقلُ السليم، بل إن الشرع جاء بأكثر مما حظره العقل السليم، لأن الشرع جاء بحظرِ الكذب وإن جرَّ نفعاً أو دفعَ ضررا، باستثناء التورية والتعريض، ومن دواعي الصدق المُروءةُ، وحبُّ الاشتهار بالصدق والانتساب إليه، كما مر سابقا.

---

(١٧٧) رواه ابن ابي الدنيا، والمنذري في الترغيب الترهيب

قال الجاحظ: الصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان، فيهنَّ تمام كل دين، وصلاح كل دنيا، وأضدادهما سبب كل فرقة وأصل كل فساد.

ومن أسباب الكذب الرغبة في أن يكون حديثه مستعذباً وكلامه مستظرفا، ونظرا لجهله أو دناءة همته، وعجزه عن التعلم، ليكون حديثُه مستعذباً ومستظرفا، فإنه يلجأ إلى الكذب فيستحليه لسهولة طرائفه، ووفرة غرائبه. فالكذب لا يعبر إلّا عن دناءة الهمة ومهانة النفس،

قال الجاحظ: لم يكذب أحدٌ قط إلّا لصغرِ قدرِ نفسِه عندَه.

ومن أسباب الكذب أيضا رغبةُ التشفي في عدوِّه، فيسمه بقبائح يخترعها عليه، ويصفه بفضائح مكذوبة ينسبها إليه، ويرى أن إرسالها في العدو سم قاتل، ومثل هذا الشخص قد جمعَ بين معرَّة الكذب، وخبث البهتان، وشرور الغيبة، والنميمة، والحسد، والبغضاء، والحقد، ومنهم من يستمرء الكذب، فتنقادُ إليه نفسه، ويصبح له عادة، ويعسرُ عليه مجانبته، حتى لو أراد ذلك.

قال الشاعر:

حسب الكـــذوب مـــن البليـةِ ... بعضُ مـــا يُحـكى عليـــهِ
فـــإذا سمعـتَ بكـــذبَـةٍ ... مـــن غيـــره نُسبَت إليـــهِ

وقال أخر:

إذا عُـرِف الكـذاب بالكـذب لم يكد ... يُصـدَّقُ في شـيءٍ وإن كان صادقـا

وقد كانت العرب في الجاهلية تأنف من أن ينسب إليها الكذب، ففي قصة أبوسفيان بن حرب عندما طلبه هرقل ليسأله عن نبوة سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم قال: أردت أن أكذب فخفت أن تعرف العرب ذلك فينسبوني إلى الكذب.

متى يباح الكذب؟

ولقد أبيح الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين ولكن على سبيل التورية والتأويل فان السنَّة لم ترد بإباحة الكذب لما فيه من الآفات، ولكن أباحت التورية والتعريض وهذا من الحنكة والحكمة والفصاحة، وعندما انفرد النبي صلى اللّه عليه وسلم قبل معركة بدر عن الجيش ليستطلع المكان، لقيه رجل وسأله من أنت ؟ قال صلى اللّه عليه وسلم: من ماء، فورَّي عن الإفصاح بنسبه بأمر محتمل، فظنَّ السائل أنه من القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه من الماء الذي يخلق منه الإنسان فبلغ ما أحبَّ من إخفاء نفسه وصدق في خبره، وهذا النوع من التورية مقبول في موضع الحرب فالحرب خدعة.

وحُكِيَ أن العرب كانت تلقى أبوبكر رضي اللّه عنه وهو في طريق الهجرة مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وكان أبوبكر معروفاً عند العرب لكثرة أسفاره وتجارته فيسألونه يا ابابكر من هذا؟ فيقول: هادي يهديني السبيل، فيظنّوا أنه خبير يرشده إلى الطريق، وهو إنما يقصد هداية سبيل الخير وهو الإسلام، فصدق في قوله، ووَرَّى عن مراده،

وقد روي عن رسول الله عليه وسلم أنه قال: "**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**"(١٧٨)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "**إن في المعاريض ما يكفي أن يعفَّ الرجل عن الكذب**" فهذا النوع من المعاريض والتورية هو الكذب المسموح به في أوقات الضرورة من الحرب و إصلاح ذات البين وغيره.

متى يكون الصدق مذموماً

وكذلك إن في الصدق ما يكون مذموماً لأنه يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة وقد يزيد عليه في الأذى والمضرة في بعض الحالات مثل الخيانة وهتك الستر والغيبة والنميمة، فالصدق الذي يثير فتنة أو يؤدي بسفك دم محرم شرٌّ من الكذب الذي يحقق المصلحة ويدفع الضرر، فإذا استجاربك واختبأ عندك مظلوم، وجاء الظالم يطلبُه ليقتله فالكذب المباح في هذه الحالة خيرٌ من الصدق الذي يؤدي بحياة رجل بريء. قال الحكماء: الكذب الذي يدفع

(١٧٨) أخرجه الطبراني في التهذيب والبيهقي في شعب الإيمان، وهو جزء من حديث "أَرْبَعَةٌ لا عُذْرَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَرْبَعَةٌ لَيْسَتْ غَيْبَتُهُمْ بِغَيْبَةٍ، فَأَمَّا الَّذِينَ لا عُذْرَ لَهُمْ: فَرَجُلٌ مُحَارِبٌ فِي بِلادِهِ لا يُوَجِّهُهُ شَيْئًا عَلَيْهِ، لا عُذْرَ لَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهَا فَيُهَاجِرَ فِي أَرْضِ اللَّهِ فَيَلْتَمِسَ مَا يَقْضِي بِهِ دَيْنَهُ، وَرَجُلٌ لَهُ زَوْجَةٌ تَخُونُهُ فِي فَرْجِهَا لا عُذْرَ لَهُ حَتَّى يُطَلِّقَهَا، لا يُشْرِكُ فِي الْوَلَدِ غَيْرَهُ، وَرَجُلٌ لَهُ مَمْلُوكُ سَوْءٍ فَهُوَ يُعَذِّبُهُ لا عُذْرَ لَهُ حَتَّى يَبِيعَهُ، إِمَّا أَنْ يَبِيعَ وَإِمَّا أَنْ يَعْتِقَ، وَلا يُعَذِّبُ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَرَجُلانِ اصْطَحَبَا فِي سَفَرٍ فَهُمَا يَتَلاعَنَانِ لا عُذْرَ لَهُمَا حَتَّى يَتَفَرَّقَا، وَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسَتْ غَيْبَتُهُمْ بِغَيْبَةٍ : فَالإِمَامُ الْكَذَّابُ، إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَشْكُرْ وَإِنْ أَسَأْتَ لَمْ يَغْفِرْ، وَالْفَاسِقُ الْمُعْلِنُ بِفِسْقِهِ، وَالْمُتَفَكِّهُونَ بِالأُمَّهَاتِ، وَالْخَارِجُ مِنَ الْجَمَاعَةِ، وَالطَّاعِنُ عَلَيْهِمْ شَاهِرًا سَيْفَهُ عَلَى أُمَّتِي

ضرراً أو يجلب مصلحة خير من الصدق الذي يثير فتنة.

والمغتاب الذي يهتك سترا، ويجاهر بمعاصي أخفاها مرتكبها متذرعاً بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة: الإمام الجائر وشارب الخمر، والمعلن بفسقه."(١٧٩)

فيستشهد بالحديث في غير موضعه ويبتعد عن الصواب، ويتخطى حدود الأدب، لأنه وان كان ما يقوله صدقا، فإنه قد هتك سترا، فلم يُفِده ذلك إلا فساد أخلاقه وقلة أدبه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره.

قال الشاعر:

لا تلتمس من مساويْ الناس ما ستروا ... فيهتك اللهُ ستراً عن مساويكا

واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تُعِب أحداً منهم بما فيكا

قال عدي بن حاتم: الغيبة رعي اللئام،

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: الغيبةُ فاكهةُ النساء.

(١٧٩) أخرجه ابن شاهين في "الترغيب في فضائل الأعمال".

الفصل السابع عشر

الصبر مفتاح الفرج

ولا يطيقه الا الرجال

الفصل السابع عشر

الصبر مفتاح الفرج
ولا يطيقه الا الرجال

الصبر على الملمات والرفق عند النوازل من أمارات السعادة وحسن التوفيق به نزل الكتاب وجاءت به السنه النبوية الشريفة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(١٨٠)

وقال صلى الله عليه وسلم: **"الصبرُ سترٌ من الكروب، وعونٌ على الخطوب"**(١٨١)

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أفضل العدة الصبر على الشدة،

قال بعض الحكماء: بالصبر على مواقع الكُرهِ تُدرَك الحظوظ.

وان أعظم الصبر هو الصبر على طاعة الله عز وجل، وهو الصبر على ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه، لأنه به تكون الطاعة خالصة لوجه الله تعالى، وبالاخلاص يصح الدين، وتؤدى الفروض، ويستحق الثواب، قال تعالى ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾(١٨٢)

---

(١٨٠) آل عمران – ٢٠٠

(١٨١) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة

(١٨٢) الزمر ١٠

ويروى أن الإمام عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أَلا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ بَادَ الْجَسَدُ"، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ، فَقَالَ: "أَلا إِنَّهُ لا إِيمَانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ".

وليس لِمَن قلَّ صبرُه على طاعة الله حظٌ من برٍ ولا نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا، ويدفع عنها عقابا كان بعيدا عن الرشاد قريبا من الضلال. قال أبو العتاهية:

أراكَ أمرواً ترجو من الله عفوَهُ ... وأنتَ على ما لا يُحبُّ مقيمُ

تدُلُّ على التقوى وأنت مقصِّرٌ ... فيا مَن يداوي الناسَ وهو سقيمُ

والصبر الثاني أن يصبر على مقتضيات زمانه من رزايا الأيام وحادثات الليالي، فإن الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها، فإن صبر طائعاً محتسباً فله الأجر، وإلا احتَمَلَ همّاً لازما، وصبراً كارهاً آثماً،

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس: "إنَّك إن صبرت جرى عليك القلمُ وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القلمُ وأنت مأزور، قال الشاعر:

وَلَئِن تُصيبك مصيبةٌ فأصبر لها ... عَظُمَت مصيبةُ مبتلىً لا يَصبرُ

ومن الصبر المحمود الصبر على ما لا يمكن إدراكه مثل الصبر على ما فات فإن الصبرَ عنها يُعقِب السلوَّ منها، قال الشاعر:

لا تُطِــل الحُـزنَ عــلـى فائتٍ   فقلَّما يجــدي عليــك الحَزَن

ومن أنواع الصبر، الصبر على ما يُخشى وقوعُه من مصائب وأحداث في المستقبل،

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**بالصبر يُتوقع الفرج، ومن يُدمِن قَرعَ بابٍ يَلِج**"

وقال الحسن البصري رحمه الله: "لا تحملن على يومك همَّ غدِك، فحسبُ كلَّ يومٍ همُّهُ"

ومنها الصبر على ما يتوقع من المغانم، وما ينتظر من النعم، فإذا سيطرَ على حواسِّه التوقعُ والانتظارُ، وأذهله التطلعُ إليها، انسدت عليه سُبُل المطالبة، الأمرُ الذي يبعد عنه حصول المطلوب، ولكن إذا تحلى بالصبر والوقار عند الطلب، انجلت عنه عماية الحيرة والدهشة، فأبصر رشده وعرف قصده،

وقـد روي عنـه صلـى الله عليه وسلم أنـه قال: "**الصبر ضيـاء**" أي ينير طريقـك، وهـو جـزء من حديـث طويـل عن أبـي مالك الحـارث بـن عاصم الأشعري رضـي الله عنـه قال: قال رسول الله صلـى الله عليه وسلم: "الطهور شطـر الإيمـان، والحمد لله تملأ الميـزان، وسبحـان الله والحمد لله تملآن – تمـلأ – ما بين السمـاوات والأرض، والصلاة نـور، والصدقة برهان، والصبر ضيـاء، والقرآن حجة لـك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائـع نفسه، فمعتقها أو موبقها." (١٨٣)

(١٨٣) رواه مسلم

وقال أكثم بن صيفي في مثل هذه المواقف: من صبر ظفر،

وقال بعض الحكماء: من صبر نال المنى، ومَن شكر حصَّن النِّعمة،

وقال الشاعر:

إن الأمــورَ إذا سُـدَّت مطالبُها	**فالصبرُ يَفتُـقُ منها كلَّ ما ارتجّا**
لا تيأسَن وإن طـالـت مطالبـةٌ	**إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فرجا**
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته	**ومُدمِن القرعَ للأبواب أن يَلِجا**

ومنها الصبر علي ما نزل من مكروه، وحل من أمر مخوف، فبالصبر عند المصائب تنفتح وجوه الآراء، وتستدفع مكابر الأعداء، فإن مَن قلَّ صبرُه، اشتد جزعه، وصار صريع همومه، وفريسة غمومه، فغاب رأيُه، وفقد رشدَه، وما النصرُ إلا صبر ساعة، وكلما اشتدت الأزمة وضاقت اقترب الفرج. والصبر في هذه المواقع من عزم الأمور، ولا يطيقه الا الرجال الأشداء، الذين يَتَحلّون بالأناةِ والتثبت من المعلومات، ويستمعون إلى مشورة الحكماء، ويستخيرون الله عز وجل. ويطلبون منه العون وسداد الرأي والهداية إلى الحق وسبل السلام. قال تعالى على لسان لقمان لإبنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (١٨٤).

(١٨٤) لقمان – ١٧

عَـنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ رضي اللَّه عنهما قَـالَ: كُنْتُ خَلْفَ النبي صلى اللَّه عليـه وسلم يَومَـاً فَقَالَ: (يَا غُـلامُ إِنّي أُعَلِّمُـكَ كَلِمَاتٍ: احْفَـظِ اللَّه يَحفَظك، احْفَظِ اللَّه تَجِدهُ تُجَاهَـكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّه، وَإِذَا اسْتَعَنتَ فَاسْتَعِن بِاللَّهِ، وَاعْلَم أَنَّ الأُمّة لو اجْتَمَعَت عَلَى أن يَنفَعُوكَ بِشيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَـك، وإِن اِجْتَمَعـوا عَلَى أَنْ يَضُـرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضروك إلا بشـيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَت الأَقْلامُ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وفي رواية غير الترمذي: "اِحفظِ اللَّه تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلى اللَّهِ في الرَّخَـاءِ يَعرِفْكَ في الشّـدةِ، وَاعْلَم أن مَا أَخطأكَ لَمْ يكُن لِيُصيبكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُـن لِيُخطِئكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّـبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَربِ، وَأَنَّ مَعَ العُسرِ يُسرا."[185]

اشتداد الأزمات مبشرٌ بانفراجها:

وقال بعض البلغاء: عند انسدادِ الفُرَجِ تبدوا مطالِعُ الفَرَجِ.

كلما اشتدت الأزمات اقترب الفرج.

فإذا استحكمت حلقات الأزمة وانقطع الرجاء من كل وجه وظن الناس أن لا ملجأ من اللَّه إلا إليه، وإذا تابوا إلى اللَّه ورجعوا إليه فإن فرج اللَّه سيأتي لا محالة.

(١٨٥) الحاكم في المستدرك على الصحيحين

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سليمان بن داوود عليهما السلام، لما استَكَدَّ شياطينه في البناء، شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله: فقال ألستم تذهبون فُرَّغا وترجعون مشاغيل؟ قالوا: بلى، قال: ففي ذلك راحة، فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين، فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ألستم تستريحون في الليل؟ قالوا: بلى، قال: ففي هذا راحة لكم نصف دهركم، فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار، فشكوا ذلك إلى ابليس لعنه الله، فقال: الآن جاءكم الفرج، فما لبثوا أن أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه.

فإذا كان هذا مع نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، فكيف بما جرت به الأقدار من حوادث الليل والنهار على عامة الناس فهل تكون إلا متناهية ومنقرضة ؟ وعند بلوغ غايتها لابد إلا أن تكون منحسرة ومتلاشية وزائلة.

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال:

خليليَّ لا والله مـــا مِنْ مُلِمَّةٍ ... تـدومُ على حَـيٍّ وإن هِـيَ جَلَّـتِ

فـإن نزلـت يومـاً فـلا تَخضَعَـنّ لهـا ... ولا تُكـثِرِ الشكـوى إذا النعـلُ زلَّـتِ

فكَـم مِـنْ كـريمٍ قـد بُلِي بنوائـبٍ ... فصابرهـا حتـى مَضَـت واضمَحَلَّتِ

وكَـم غَمْـرَةٍ هاجـت بأمـواجِ غَمـرَة ... تَلَقَّيتُهـا بالصّبـرِ حتـى تَجلَّـتِ

وكانـت علـى الأيـامِ نفسـي عزيـزةً ... فلمـا رأت صـبري علـى الـذُّلِّ ذَلَّـتِ

فقلتُ لها يا نفسُ موتي كريمَةً ... فقد كانت الدُّنيا لنا ثُمَّ وَلَّتِ

وقال الشاعر:

ألَم تـرَ أنّ الدَّهـرَ مِن سُوءِ فِعلِهِ ... يُكَدِّرُ ما أعطى ويَسلُبُ ما أسدى

فَمَنْ سرَّهُ ألّا يَرى ما يَسوءُهُ ... فلا يَتَّخِذ شَيئاً يَخافُ لَهُ فَقْدا

انجلاء الشدائد محتوم:

وإن الرجلَ الصبور يعلمُ أن الشدائدَ لابُدَّ أن تنجلي بإذن الله، وأن الهمومَ والغموم لا بُدَّ أن تنكشف، لكن لكلِّ شيءٍ أجل عند الله تعالى عز وجل لا ينصرم قبل حلول أجله، ولا يدوم بعده، ويعلمُ العاقِلُ أن الصبرَ لا يُطيلُ أَجَلَ الشدائدِ، وأن الجَزَعَ والخوفَ لا يُقَصِّره، وكل يوم يمر على الشدائد يأخذ بنصيب منها، ويُقرِّبُ أجلَ انصرامِها وانصرافِها، حتى تنجلى وَهُوَ عنها غافل.

حُكيَ أن الرشيدَ حبس رجلاً ثم سألَ عنه بعد زمان، فقال للمُوَكَّل به: قل له كل يوم يمضي من نعيمه، يمضي من بؤسي مثله، والأمر قريب والحكم للّه تعالى.

وعندما حضرت الوفاة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشد قائلا"

ألَم تـرَ أن ربَّك ليس تُحصى ... أياديهُ الحديثةُ والقديمةْ

تَسَلَّ عـن الهمـومِ فليس شـيءٌ ... يَقـــومُ ولا همومُك بالمُقيمَـةْ
لعَلَّ اللّه ينظـــــرُ بعدَ هـذا ... إليـــكَ بنظـــرةٍ مِنـهُ رحيمَـةْ

قال الإمام عبد اللّه بن علوي الحداد رحمه اللّه

يـا صابـراً أبشـرْ وبشِّـرْ مَـنْ صبر ... بالنَّصـرِ والفرجِ القريـبِ وبالظَّفرْ
نـالَ الصَّبـورُ بصبـرِه مـا يَرتَجـي ... وصَفَتْ لـهُ الأوقاتُ مِنْ بَعـدِ الكَدَرْ
فاصبرْ على المِحَـنِ القَواصِدِ وانتظرْ ... فَرَجـاً تَـدولُ بِـهِ دُوَلُ القـدَرْ
وإذا الحـوادثُ أظلمـتْ وتنكـرتْ ... فاسكـنْ وإيّـاكَ التَّحـرُّكَ والحَـذَرْ
إنّ النوائـبَ كالسَّحائِـبِ تنجلـي ... في سرعـةٍ ووجودهـا يُضحي خَبَرْ
وإذا تَطـــولُ إقامـةٍ مِـنْ حـادِثٍ ... كانـت مُبَشِّـرةً بطـولِ المُنتَظَـرْ

في كل محنةٍ منحةٌ:

ومنها أن يعلم أن ما من مصيبة الا وهناك أعظم منها، وأن اللّه سبحانه وتعالى قد وقاه من مصائب أكبر من مصيبته، وكُفِيَ من الحوادث ما هو أعظم وأشد من حادثته.

وقد قيل: "ان للّه تعالى في اثناء كلِّ مِحنَةٍ مِنحَة".

وقيل للشعبي في نائبة أصابته: كيف أصبحت ؟

قال: بين نعمتين: خيرٌ منشور وشَرٌّ مستور.

ومنها أن يتأسَّى الحليمُ بأصحابِ النَّخوَةِ، ويتسلَّى بأولي العِبَر، ويعلم أنهم الأكثرون عدداً والأسرعونَ مدداً، فإن في حُسنِ العزاءِ ما يخفِّفُ شَجْوَه، ويُقِلُّ هَلَعَه،

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصقوا بذوي العِبَر، تتسع قلوبكم.

وفي مثل هذا قال البحتري:

فلا عَجَبٌ للأُسْدِ إن ظَفِرت بها — كلابُ الأعادي من فصيحٍ وأعجمي

فحَربَةُ وحشيٍّ سَقَت حمزَةَ الرَّدى — وموتُ عليٍّ من حُسامِ ابنِ مُلجِمِ

وعلى المرء أن يعلم أن النعمة والمصيبة كلتاهما زائلة،

وقيل للحسن البصري رحمه الله: كيف ترى الدنيا؟ قال: شغلني توقع بلائها عن الفرح برضائها،

وقيل في منثور الحِكَم: مَن بلغَ غايةَ ما يُحب، فليتوقع غايةَ ما يَكرَه.

وليعلم أن سرورَ المرءِ مقرونٌ بمساءَة غيرِه،

وفي هذا المعنى قال المتنبي:

بذا قضت الأيامُ ما بينَ أهلِها — مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ

وقال البحتري:

متى أرت الدنيا نباهَةَ خامِلٍ — فلا ترتقب إلّا خمولَ نَبيهِ

المحن من دلائل الفضل:

وليعلم المرءُ أن المحنَ مِن دلائلِ الفضلِ والنبلِ،

وقد قيل: مَن زادَ في عقلِهِ نقصَ من رزقِه، وقيل أيضا: "ما انتقصت جارحةٌ مِن إنسانٍ إلّا كانت ذكاءً في عقلِه" قال الشاعر:

مِحَن الفتى يُخبِرنَ عن فضل الفتى　　　كالنـارِ مُخـبِرةً بفضـلِ العَنـبَرِ

المِحَن فرصة للتعلم:

إن المحن تمنحُ المرءَ حنكةً ودرايةً وخبرةً جديدة، فيصلبُ عودُه ويستقيمُ عمودُه، ويَكمُلُ بينَ شدَّتِه ورَخائِه، ويتَّعظُ بحالةِ راحتِه وبلائِه، وبالمحنةِ يختَبِرُ المَرءُ زمانَه، ويَتَنَبَّهُ على صلاحِ شأنِه، فلا يَغتَرُّ برَخاء، ولا يَطمعُ في استواء، ولا يؤمِّلُ لأن تبقى الدنيا على حالة، أو تخلوا من تقلُّبٍ واستحالة، فمن عرف الدنيا هان عليه بؤسَها ونعيمَها، وتسهَّلَت عليهِ أشجانُه، فصارَ قليلَ الجزعِ، وحَسَنِ العزاءِ،

قال الشاعر:

لا يكـونُ الأمـرُ سهــلاً كلُّـهُ　　　إنّمــا الدّنيــا ســرورٌ وحــزونْ

هَــوِّن الأمـرَ تعشْ في راحَـةٍ　　　قَـلَّ مــا هَوَّنــتَ إلا سَيَهـونْ

تَطلُـبُ الرَّاحَــةَ في دارِ العَنــا　　　ضَـلَّ مَـن يَطلـبُ شيئاً لا يكـونْ

الصبر مفتاح الفرج:

وقد قيل: إن الصبر على المصائب يجعل الفرج قريبا، وقلَّ مَن صبر على حادثةٍ وتَماسَك في نكبةٍ إلا كان انكشافُها وشيكاً، وكان الفرج مِنْه قريباً.

أخبر بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره؛ فكتب إلى بعض إخوانه يشكو لهم طول حبسه، فرد عليه جواباً ذيَّلَهُ بهذه الأبيات:

صبراً أبا أيوب صبرَ مُبرَّحٍ — فإذا عَجزتَ عن الخطوبِ فَمَن لها؟
إن الذي عَقَدَ الذي انعقَدَت لَه — عُقَدُ المكارِه فيكَ يَملِكُ حَلَّها
صبراً فإن الصبرَ يعقُب راحَةً — ولعَلَّها أن تَنجلي ولعلَّها

فأجاب أبو أيوب بقولِه:

صَبَّرتني ووعظتني وأنا لها — وستنجلي بل لا أقولُ لعلَّها
ويَحلَّها مَنْ كان صاحبُ عَقدَها — كرماً به إذ كان يَملِكُ حَلَّها

فلم يلبث في السجن إلا أياماً بعدها حتى أُطلِق سراحُه مُكرَّما.

قال الشاعر:

إذا اشتملت على اليأسِ القلوبُ — وضاقَ لما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطَنت المكارِهُ واطمأنَّت — وأرست في مكانتِها الخطوبُ

وَلَم تَـرَ لانكشـــافِ الضـرِّ وَجهاً ... ولا أغنــى بحيلَتِـه الأَريـــبُ

أتـاكَ على قنـوطٍ مِنْـكَ غَـوثٌ ... يَمُـنُّ بـــه اللطيـفُ المُستَجيـبُ

وكلُّ الحادثـــات إذا تنـــاهت ... فموصـولٌ بهـــا الفَـرجُ القريـبُ

الفصل الثامن عشر

المشورة من أخلاق الرجولة

الفصل الثامن عشر

المشورة من أخلاق الرجولة

ان من صفات ذوي الألباب وأصحاب العقول الراجحة أن لا يُبرموا أمرا ولا يُمضون عزماً إلا بمشورة ذوي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، فإن الله تعالى أمر نبيَّه بالمشورة، فقال عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (١٨٦)

قال الحسن البصري رحمه الله: أمر بمشاورتهم ليقتدي به المسلمون ويتبعوا سنته في الاستشارة، وان كان صلى الله عليه وسلم عن مشورتهم غنيا؛ لأن الله سبحانه وتعالى تكفَّل بإرشاده، ووعد بتأييده.

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال "**المشورة حصن من الندامة وأمان من الملامة**".

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي، ورجل حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يطيع مُرشدا.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن المشورة والمناظرة باب رحمة، ومفتاح بركة، لا يضل معها رأي، ولا يفقد معها حزم. وقيل: ما خاب من استخار وما ندم من استشار.

---

(١٨٦) آل عمران – ١٥٩

قال بشار بن برد:

إذا بلغ الـرأي المشـورة فاستعـن — بـرأيٍ نصيـحٍ أو نصيحـةِ حـازمِ

ولا تجعـل الشـورى عليـك غضاضـةً — فـإن الخـوافي قـوةٌ للقـوادمِ(١٨٧)

وينبغي أن يكون المستشار ذا عقل وتجربة وعلم، فاذا عزم المرءُ على المشاورة ارتاد لها من استكملت فيه خمس خصال: العقل الراجح والخبرة، والتقي الورع، والناصح الودود، وسليم الفكر خال من الهم والغم، وغير ذي هوى.

أولهـا: العقل الراجح والعلم والتجارب السابقة، قال صلى الله عليه وسلم "استرشدوا العاقل تَرشُدوا، ولا تعصوه فتندموا" (١٨٨)

وقيل لرجل من قبيلة عبس ما أكثر صوابكم: قال نحن ألف رجل وفينا رجل حازم ونحن نطيعه وكأنا الف حازم.

قال بعض الحكماء: من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

ومـا كلُّ ذي لـبٍ بمؤتيـك نصحَـهُ — ولا كــلُّ مــؤتٍ نصحَـهُ بِلَبيـبِ

ولكـن إذا استُجمعـا عنـدَ صاحِـبٍ — فَحُـقَّ لَـه مِـن طاعـةٍ بنصيـبِ

---

(١٨٧) غضاضة: ذلة ومنقصة، الخوافي: الريشات الصغيرات، القوادم: الريشات الكبيرات في الجناح

(١٨٨) أخرجه الدارقطني

وثانيها: أن يكونَ المستشارُ ذا دينٍ وتُقى فإن ذلك عمادُ كلِّ صلاح، وبابُ كلِّ نجاح، ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة، موفق العزيمة،

وثالثها: أن يكون المستشارُ ناصحاً ودوداً، فانَّ النُّصحَ والمَوَدَّة يصدقان الفكرة، ويمحصان الرأي.

والخصلة الرابعة: أن يكونَ سليم الفكرِ مِن همٍّ شاغل وغمٍّ قاطعٍ، فإن مَن عارَضَت فكرَه شوائبُ الهموم، لا يسلم له رأي، ولا يستقيم له خاطر.

والخصلة الخامسة: أن يكون المستشارُ غيرَ ذي غرضٍ ولا هوى، فإن الأغراضَ جاذبةً، والهوى صاد، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد.

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

وقـد يُحكِـمُ الأيـامَ مَـن كان جاهلاً ... ويُـرْدِي الهوى ذا الـرأي وهو لبيبُ

ويُحمَدُ في الأمـرِ الفتى وهُوَ مُخطِئٌ ... ويُعْـذَل في الإحسـانِ وهُـوَ مُصيـبُ

فإذا استُكمِلت هذه الخصال الخمسة في رجلٍ كان أهلاً للمشورة ومَعدِناً للرأي، فلا تعدِل عن استشارته اعتماداً على ما تَتَوهَّمه من فضلِ رأيك، وثقة بما تستشعره مِن صحَّةِ رَوِيَّتِك، فإن رأيَ غير ذي الحاجة أسلم، وهو إلى الصواب أقرب لخلوص الفكر عن الميل لمطالب الشهوة والأغراض الشخصية، وخلو الخاطر عن الانحياز تحت تأثير الهوى إلى أي من الفريقين.

قال صلى اللّٰه عليه وسلم: "**رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس، وما استغنى مستبدٌ برأيه، وما هلك أحدٌ عن مشورة، فإذا أراد الله بعبدٍ هَلَكَةً كان أولُ ما يُهلكه رأيُه.**"(١٨٩)

قال علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه.

قال لقمان الحكيم لأبنه: شاور من جرب الأمور، فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه مجانا،

وقال بعض الحكماء: من استغنى برأيه ضل، ومن اكتفى بعقله زل،

وقال اخر: الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد"

وقال الشاعر:

خليلي ليس الرأي في صدر واحدٍ ... أشيرا عليَّ بالذي تَرَيانِ

وينبغي أن يكثر المرء من استشارة ذوي الألباب لا سيما في الأمر الجليل، فقلما يضل عن الجماعة رأي أو يذهب عنهم صواب، لأن إرسال الخواطر الثاقبة، واجالة الأفكار الصادقة، لا يعزب عنها ممكن، ولا يخفى عليها جائز.

وروي أن الأصمعي قال:

النصحُ أرخصُ ما باع الرجالُ فلا ... تردُد على ناصحٍ نُصحاً ولا تَلُمِ

إن النصائحَ لا تخفى مناهجُها ... على الرجالِ ذوي الألباب والفَهَمِ

---

(١٨٩) رواه البيهقي في الشعب

ويروى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إياك ومشاورة النساء فان رأيَهُنَّ إلى الأفْنِ[190]، وعَزمَهُنَّ إلى الوَهْن.

وفي الحديث أن اليهود عندما قالوا: السام عليكم. قالت لهم عائشة رضي الله عنها وعن أبيها : عليكم اللعنة والسام والأفن (أي الحمق ونقص العقل)، ومن أمثال العرب : البطنة تأفن الفطنة. أي أن الشبع والامتلاء يضعف الفطنة وينقصها، أو أن الشبعان لا يكون فطناً عاقلاً.

قال الكميت يمدح زياد بن عقيل الأسدي:

ماحولتك عن اسم الصدق آفنةٌ   من العيوب وما نبرت بك السبب

آفنة أي خصلة تأفن العقل أي تنقصه. والمأفون: الأحمق ناقص العقل، أوضعيف العقل والرأي، الذي لا رأي له يرجع إليه.[191]

وقال بعض الحكماء: مشورةُ المشفِقُ الحازمُ ظَفَر، ومشورةُ غير الحازمِ خَطَر.

على أن هذا الأمر لايؤخذ على اطلاقه فكثير من النساء تميزن بالحكمة والعلم، وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة الحديبية أم سلمة رضي الله عنها وأخذ برأيها.

---

(١٩٠) الأفن : نقص العقل وضعف الرأي.

(١٩١) لسان العرب، الجزء الأول، ص(١٧٥- ١٧٦)

العزم على الإمضاء:

فإذا تقرر له الرأي أمضاه ولا يُؤاخذ المستشار على عواقب المشورة، فإنما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجاح، لا سيما والمقادير غالبة.

ولا وجـه لمن تقـرر لـه رأيٌّ أن يتأخرَ في إمضائـه[١٩٢]، فـان الزمان غادر والفُرَص مُنتهزَة، قال الشاعر:

إذا كنـت ذا رأي فكـن ذا عزيمـةٍ ... ولا تـكُ بالـترداد للـرأي مُفسـدا

فـإني رأيـتُ الرَّيـثَ في العزمِ هُجْنَـةً[١٩٣] ... وإنفاذَ ذي الـرأيِ العزيمةَ ارشدا

فإذا تقرر الرأي فمن الحكمة العزم على امضائه، فإنّ التلكؤ في العزم يولد التردد وإن التردد مفسدة للرأي.

وحيث أن المستشار مؤتمن على النصح، فينبغي لمن أنزله الله هذه المنزلة وأحَلَّهُ محل الناصح الأمين، أن يؤدي حقَّ هذه النِّعمة بإخلاص السريرةِ لله، ويكافئَ المستشيرَ ببذلِ قصارى جهدَهُ بالنصح،

---

(١٩٢) إمضائه : تنفيذه

(١٩٣) هُجْنَةُ الكَلاَمِ :- : قُبْحُهُ، عَيْبُه،في عِبَارَاتِهِ هُجْنَةٌ:اِخْتِلاَطُ تَعَابِيرِهِ بِكَلاَمٍ غَيْرِ فَصِيحٍ
هجُن الشخصُ كان أبوه عربيًّا وأمّه أعجميّة، فهو هَجِين. الهُجْنَةُ: العيبُ والقبح
الهُجْنَةُ: خِسَّةُ النَّسب من قِبَل الأمّ

- هجُن الكلامُ وغيرُه: كان معيبًا مرذولاً، دخَل فيه عيبٌ :- في كلامه هُجْنة.

وروي أن النبـي صلـى الله عليه وسلم قـال: "المستشيرُ مُعـانٌ، والمستشارُ مُؤتَمَنٌ"(١٩٤).

لايبدي المستشار رأيه قبل أن يستشار:

ولا ينبغي أن يبدي المستشار رأيه قبل أن يستشار إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، حتى لا يتهم أو يترك رأيه ولا يُؤبه به. قال لقمان لابنه: يا بني، إذا استُشهدتَ فاشهد، وإذا استُعِنتَ فأعن، وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر.

ومـا كلُّ ذي لـبٍ بمؤتيـك نصحَـهُ ... ولا كـلُّ مـؤتٍ نصحَـهُ بِلَبيـبِ

قال الشاعر:

مِنَ الناسِ مَنْ إن يَستَشِرك فَتَجتهدْ ... له الـرأيَ يستغششك ما لم تُتَابِعُهْ

فـلا تَمنحـنَّ الـرأيَ مـن ليسـ أهلَهُ ... فلا أنـت محمودٌ و لا الـرأيُ نافعهْ

لأن الحكمةَ ثمينة فلا تضعها في غيرِ أهلها.

---

(١٩٤) أخرجه الترمذي

كتمان السر من صفات الرجولة

إن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "**استعينوا على قضاء حوائجكم بالسِّر والكتمان فان كل ذي نعمة محسود**"(١٩٥)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سرُّك أسيرُك فان تكلَّمتَ به صرتَ أسيرَه، قال بعض الحكماء لأبنه: كن جواداً بالمال في موضع الحقِّ، ضِنِّيناً(١٩٦) بالأسرارِ عن جميع الخلقِ،

وقال أخر من كتمَ سِرَّهُ، كان الخيارُ إليه، ومَن أفشاهُ كان الخيار عليه.

إن إفشاءَ السرِّ ناتج مِن ضيقِ الصدرِ، وقِلَّةِ الصبر، حتى إنَّهُ لم يتسع للسر،

قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّهُ بلسانِهِ ولامِ عليهِ غيرَهُ فهو أحمقُ

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِهِ فصدرُ الذي يُستودَع السرُّ أضيَقُ

وقد يسهو المرء عن يقظة الأذكياء، أو يغفل عن تحذر العقلاء. فيفشي سره.

(١٩٥) رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة، والبيقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية

(١٩٦) ضنين: بخيل

قالت الحكماء: انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل، ولا جاهلا فيخون.

قال صلى الله عليه وسلم: "**الحديث بينكم أمانة**"(١٩٧).

يروى أن معاوية أسر إلى الوليد بن عتبة حديثاً، فأراد الوليد أن يحدث به أباه،

فقال له: لا تفعل يا بني، فإن من كتم سره كان الخيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه،

قال فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وإبنه؟ قال: لا والله يابني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السرّ.

قال: فأتيت معاوية فأخبرته.

فقال: يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ. فإن إفشاء السرِّ خيانة. وبالجملة فإن إفشاء السر حرام إذا كان فيه إضرار على المرء، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

بين كتمان السرّ والمشورة

وإن من الأسرارِ ما لا يُستغنى فيه من مطالعة صديق حميم، واستشارة ناصحٍ مُسالم، فليختر العاقل لسره أمينا، إن لم يجد إلى كتمه سبيلا، وليَتَحرَّ في اختيار مَن يأتَمِنُه عليه، فليس كل من كان على الأموال أمينا، كان على الأسرار مؤتمنا.

---

(١٩٧) أخرجه ابن أبي الدنيا

وإن العفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار. ومن السهل أن تجد أميناً على الأموال، ولكن من الصعب أن تجد أميناً على الأسرار؛ ومن أجل ذلك كان أمناءُ الأسرار أشد تعذُّرا من أمناء الأموال، وينبغي أن يكون أمين السر ذا عقل ودين.

وقيل في منثور الحكم: قلوب العقلاء حصون الأسرار، وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع إليه، ويؤثر الوقوف عليه، فان طالب الوديعة خائن، وليحذر كثرة المستودَعين لسرِّه، فإن كثرتَهم سبب الإذاعة وطريق إلى الإشاعة.

الفصل التاسع عشر

صلة الأرحام من شيم الرجولة

الفصل التاسع عشر

صلة الأرحام من شيم الرجولة

إن صلة الأرحام من أصول ديننا، ولا يقوم بحقها إلا أكابر الرجال. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١٩٨)

إن العطف بالواو في هذه الآية الكريمة جعل الخوف من قطيعة الأرحام عديل لتقوى الله. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ محمد: ٢٢ – ٢٣

تدل هذه الآية على أن قطع الأرحام عديل للفساد في الأرض، ثم جعل عقاب المفسدين في الأرض القاطعين للأرحام أن تحل عليهم لعنة الله ومن حلت عليه لعنة الله لا يدخل الجنة، فعندما حلت اللعنة على ابليس طرد من الجنة، واللعنة تعني الطرد من رحمة الله الخاصة بالمسلمين، فعقاب قاطعي الأرحام والمفسدين في الأرض سواء وهو الطرد والإبعاد عن مواطن الرحمة والخير، فكانت قطيعة الرحم سببا في الوقوع في اللعنة المؤذنة بالوعيد الشديد.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يقول الله تعالى: أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته."(١٩٩)

---

(١٩٨) النساء – ١

(١٩٩) متفق عليه

وقــال صلــى اللّه عليه وآلــه وسلم : **"من سره أن ينسأ لـه في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه"**(٢٠٠)

وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: "أي الناس أفضل؟ قال: "أتقاهم للّه وأوصلهم لرحمه وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر"(٢٠١)

وقــال صلــى اللّه عليه وآله وسلم: **"إن أعجل الطاعـة ثواباً صلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجاراً، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم."**(٢٠٢)

وفي الحديـث المتفق عليــه أن اللّه سبحانه وتعالى "قال للرحم: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك."(٢٠٣)

وفي الحديـث الــذي رواه مسلــم أن رســول اللّه صلــى اللّه عليــه وسلــم قال: "لايدخل الجنة قاطع"(٢٠٤)، قال: العلماء أي قاطع رحم.

والحديـث الذي أخرجه ابن الأثير عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: "ثلاثــة لا يدخلــون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحــم، ومصدِّق السحر." (٢٠٥)

---

(٢٠٠) متفق عليه

(٢٠١) رواه أحمد والطبراني

(٢٠٢) أخرجه ابن حبان

(٢٠٣) متفق عليه

(٢٠٤) رواه مسلم

(٢٠٥) الترغيبة الترهيب

وفي رواية أخرى عنه صلى الله عليه وآله وسلم – أنه قال : "ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق بوالديه، والديوث، ورجلة النساء." (٢٠٦)

قالوا: يا رسولَ اللهِ، فما الدّيوثُ؟ قال: "الّذي لا يُبالي من دخل على أهلِه"، فقلنا: فما الرّجُلةُ من النِّساءِ؟ قال: "الّتي تتشبّهُ بالرِّجالِ"

أسباب قطيعة الرحم

كثيرا ما يحدث بين الأقارب حزازات بسيطة ثم تكبر وتتحول إلى مشكلة كبيرة. قد يكون ذلك بسبب التجاور وقرب الدار فيحدث شيء من التحاسد، أو بسبب الاختلاف علىحدود الأرض، أو الممتلكات، أو التنافس على الوجاهة في الدنيا الفانية، ويؤدي ذلك إلى التباغض، أو بسبب تقصير أحدهم بالقيام بما ينبغي أن يقوم به من احترام، أو توقير، أو واجبات، أو بسبب التقصير في صلة الرحم، وغير ذلك من الأسباب.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عماله: مرو الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاورا.

قال حجة الإسلام: وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

---

(٢٠٦) أخرجه النسائي والإمام أحمد

وكل الأسباب المشار إليها آنفا يمكن معالجتها وحلها لو بقيت الأمور محصورة في حدودها الضيقة؛ ولكن المصيبة تقع عندما يتدخل المغرضون والواشون والحاسدون بين المتخالفين فيوسوسون إليهم بما لم يكن في الحسبان. وتكبر المصيبة عندما يخلد المتنازعون إلى سماع أقوال الوشاة والمغرضين والمحرضين الذين يصطادون في الماء العكر. فيتناسون ما يجب للرحم والقرابة من الحقوق والواجبات والصلة. ويقعون في جريمة قطيعة الرحم، ويشمتون الأعداء والحاسدين في أنفسهم، ويفتحون الباب على مصراعيه لتدخل السفلة والمارقين ومثيري الفتن الذين يحبون إظهار القبائح عند الآخرين ويعتبرون ذلك من مفاخرهم ومآثرهم. فإن هؤلاء السفلة والمارقين لا يستريحون إلا بإفساد ما بين الأقارب والأصدقاء من المحبة وصفاء الود وقديم الألفة والصلة؛ لأنهم طفيليون يعيشون على التطفل على الآخرين ولا يتم ذلك لهم إلا بوجود الفتنة والفساد. فلهم الويل والثبور إذا لم يسارعوا إلى التوبة مماهم فيه. ألا يعلم هؤلاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

أهم أسباب العداوة التكبر والنساء

التّكَبُّر من أسباب العداوة:

وإن من أهم أسباب العداوة والحسد والتباغض بين الأقارب التكبر بالجاه والمـال، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم: "لايدخل الجنة من كان في قلبـه مثقـال حبة من خردل مـن كبر"[٢٠٧] والكبر أن تـرى نفسك فوق غـيرك في صفـات الكمال فتستهـتر بحق الآخـر، وتنقص قـدره، وتعامله بما لايستحقه، فـلا تؤدي حقه من الاحترام والتوقير، بل قد تحقره لقلة ذات يده، أو ضيـق منزله، أورثاثة ثيابه؛ لعـزة نفسك عليك، وهوان غيرك عندك، وهذا هو التكبر الذي يحرم المرء من دخول الجنة.

نساء الأقارب من أسباب العداوة:

ومن أسباب العداوة والبغضاء بين الأقارب النساء، وخصوصا زوجات الأقارب؛ لأنهن يتحاسدن، ويتباغضن، وكلٌّ منهنَّ تدس إلى زوجها وتوحي إليه ما يُكَرِّهه في أهله وأقاربه، ظناً منها أن خيره وبرَّه يتوفر لها إذا قاطعهم، ثم يقوى هذا الظنُّ عندها فتبالغ في اختراع الحِيَل التي توقع بينهم المنافرة والمباعدة. وأكثر من رأينا بينهم العداوات، والنزاعات، والمخاصمات؛كان للنساء النصيب الأوفر في إذكاء نار الفتنة بين المتخاصمين.

---

(٢٠٧) رواه مسلم

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن الفرس وَلّوا عليهم ابنة كسـرى أنه قال: "لن يفلح قـوم وَلّوا أمرهم - وفي روايـة - أسندوا أمرهم إلى امـرأة." وفي روايـة أخرى، "هلكت الرجال إذا أسنـدوا أمرهم إلى امرأة" وفي أخرى "ما أبرم قوم قط أمراً يصدرون فيه عن رأي امرأة إلا بتروا." أي قلعوا عـن الفلاح والرشـاد والسداد. وفي الحديث عنه صلـى الله عليه وسلم: "خاب قوم وَلّوا أمرَهـم امرأة."(٢٠٨)

إثارة الخصومة من أسباب قطيعة الرحم:

ومن أسباب قطيعة الرحم الخصومة ومقابلة الشر بالشر، قال حجة الإسلام رضي الله عنه: "كل ظلم صدر من شخص لا يجوز مقابلته بمثله." انظر إلى الرجال كيف يقابلون الشرَّ بالخير ليقلع الخصومة من أساسها. تأمل في هذه الحادثة التي وقعت لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعا:

شتم رجلٌ زينَ العابدين علياً بن الحسين رضي الله عنهما فأعطاه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم. فقال الحكماء: جمع في هذا التصرف خمس خصال:الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله، وحمله على الندم والتوبة، وعوده إلى المدح بعد الذم.

قال معاوية لرجل ساد قومه: بمَ سُدتّهم؟

قال: كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم.

---

(٢٠٨) أخرجه الحاكم في المستدرك، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير

وقال صلى الله عليه وسلم للأشج: **"إن فيك خُلُقين يُحبُّهما اللهُ ورسولُه: الحلم والأناة."**

إن في ترك الخصومة وقاية للعرض وصون للمروءة. ولذلك حرص العقلاء على ترك الخصومة في حطام الدنيا الفاني، وحرصوا على المسامحة ما أمكن في ذلك، كما حرصوا على الحلم والصفح عن الجهلاء؛ حتى لا تنخرم مروءتهم، وتُلاك أعراضهم على ألسنة الناس. وخذ عبرة من الحادثة التالية:

فالخصومة بداية كل شرّ، وسبب كل قطيعة وبغضاء بين الأقارب؛ فهي التي تذهب صفاء القلوب، وتمحو آثار المحبة والود القديم. فإذا علمت ذلك فاحذر أن تفتح باب خصام أو مراءٍ أوجدال مع أحد من الناس؛ وبخاصة مع أحد من أقربائك.

وقد سبق أن ذكرنا ما ذكره ابن قتيبة ولا بأس أن نعيدها ثانية هنا:

قال ابن قتيبة مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة، فقال: ما يجلسك ههنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي.

فقال لي إن لأبيك عندي يداً، وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءِ، ولا أضيعَ لِلَذَّةٍ، ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال: فَقُمتُ لأنصرف،

فقال لي خصمي: ما لك أين تذهب؟

قلت: لا أخاصمك.

الفصل العشرين

مكارم الأخلاق

الفصل العشرين

مكارم الأخلاق

إن مـكارم الأخلاق كلها موجودة في ديننــا الحنيف. فمن أخذ بالدين فقد أخـذ بمكارم الأخلاق. مصداقــا للحديث الذي روي عن نبينــا صلى اللّه عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق."(٢٠٩)

إن مكارم الأخلاق من أهم مقاصد الشرع الحنيف

ويروى أن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال:

إن المكــارم أخــلاق مطهــرةٌ — فالعقــل أولها والديـن ثانيهــا

والعلم ثالثهــا، والحلم رابعهــا — والجود خامسها والعرف ساديها

والـبر سابعهــا، والصبر ثامنهــا — والشكر تاسعهـا واللـين عاشيها

والنفس تعلــم أني لا أصـدقهــا — ولست أرشـد إلا حـين أعصيهــا

وقد أرسل اللّه تعالى سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم رحمة لجميع المخلوقات فهو الرحمة المهداة لجميع العوالم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٢١٠) لأنه أرسل للعوالم جميعها: لعالم الإنس وعالم الجن تكليفا لهم، ولسائر العوالم تشريفا لها. لأن وجود النظام الإلهي في العوالم كلها رحمة لها.

(٢٠٩) رواه البيهقي وأحمد

(٢١٠) الأنبياء – ١٠٧

وإن الرحمة بجميع العوالم أهم مقاصد الشرع الحنيف الذي أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أخطأ طريق الإسلام كل من نزعت الرحمة من قلبه. وقد أخطأ طريق الإسلام كل فئة أو طائفة أو حزب أو مذهب لا يعتمد الرحمة من أهم مقاصده.

فالحمد لله خالق الكون، ومنزل القرآن على قلب النبي العدنان، ليرشد الإنسان إلى ما فيه صلاح الشأن في الدنيا والآخرة، خلق الخلق وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل لهم رسله، وشرع لهم دينه من غير حاجة إلى تعبدهم، وإنما قصد نفعهم تفضلا منه، كما سبق أن تفضل عليهم بنعمه، وجعل ما تعبدهم به من التكاليف الشرعية مأخوذة من العقل السليم، والشرع القويم. وجعل من حكمته عدم تعارض الشرع القويم، مع العقل السليم؛ فالشرع لا يرد فيما يمنع منه العقل السليم، والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع القويم.

وأرسل رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين بالشرع القويم، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وبين لهم شريعته في ما أحله وحرمه، واستحبه وكرهه، وأباحه وحظره، وأمر به ونهى عنه، ورغب به ورهب منه، ووعد به من الثواب، وأوعد به من العقاب، وكان ذلك من رأفته بالإنسان ورحمته بهم من غير حاجة إليهم، وإنما لطفا منه وتفضلا. فالحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وشكره الذي لا يؤدى.

وجعل القرآن الكريم أصلا لدينه، والسنة النبوية شارحةً له، وسنة الخلفاء الراشدين والوراث المحمديين موضحة لشرحه، ومكملة له، وجعل استنباط العلماء واجتهاداتهم مُبيِّنَة لاشتقاق الفروع من الأصول، وكاشفةً عما غَمض من الفهوم.

وقـد روي عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "القرآن أصل علم الشريعـة، نصه دليله، والحكمة بيان رسول الله صلـى الله عليه وسلم، والأمة المجتمعة حجةٌ على مَنْ شذَّ عنها."[٢١١]

وكان من رأفة الله ورحمته بالعباد، أن رفع عنهم الحرج في التكاليف، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[٢١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٢١٣]. وإن المتأمـل بالتكاليـف الشرعيـة يجد فيها نفعَي الدنيا والآخرة، ولذلك ينبغي أن يشكر الإنسان ربَّه على نعمة الدين.

قال الحسن بن علي رضي الله عنه: نعم الله أكثر من أن نشكرها إلا من أعان عليه، وذنوب ابن أدم أكثر من أن تغفر إلا ما عفا عنه.

---

(٢١١) ذكره الماوردي في "ادب النيا والدين" ص١٤١

(٢١٢) البقرة – ٢٨٦

(٢١٣) الحج – ٧٨

قال الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾(٢١٤) قال مجاهد يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه، وينكرونها بقولهم ورثوها عن أبائهم، أو اكتسبوها بأفعالهم، فنسبة النعمة إلى غير فاعلها على الحقيقة إنكارٌ لها. وحيث أن الفاعل الحقيقي في هذا الكون هو الله سبحانه وتعالى كان نسبة النعمة إلى غيره إنكاراً لها.

وقال صلى الله عليه وسلم: "يقول الله: يا ابن آدم ما أنصفتني أتحبب إليك بالنعم، وتتمقتُ إلى بالمعاصي، خيري إليك نازل، وشَرُّكَ إليّ صاعد، كم من ملك كريم يصعد إليّ منك بعمل قبيح."(٢١٥)

إنّ التقصير في شكر النعم مُنفِّرٌ لها، وبالشكر تدوم النعم.

قال الشاعر:

شكر الإله نعمة ... موجبة لشكره
فكيف شكري بَرَّهُ ... وشكرُهُ مِنْ بِرِّهِ

وقال الحكماء من تهاون في الدين هان.

قال الشاعر:

وأحقُّ ما صانَ الفتى ... ورعى أمانَتَه ودينَه

---

(٢١٤) النحل - ٨٣

(٢١٥) أخرجه البيهقي والطبراني والديلمي وغيرهم وفيه اختلاف في الألفاظ وزيادات مختلفة

وقال الشاعر:

أبنـــي إن مِـنَ الرجــال بهيمــةٌ   في صـورة الرجـل السميـع المبصرِ
فَطِـنٌ بكـــل مصيبـةٍ في مالِـــه   وإذا يُصــابُ بدينـهِ لــم يشعرِ

وقال عبد الله بن المبارك:

أيَضمـــنُ لي فتـىً تـركَ المعاصي   وأرْهِنُــــهُ الكفالــةَ بالخلاصِ

وإن مما يساعد الانسان على ترك المعاصي مجالسةَ الأخيارِ والاقتداءَ بهم،

قال الحكماء: الصاحب ساحب، وقالوا أيضا: قل لي من ترافق، أقل لك من أنت.

قال الشاعر:

رأيـتُ صـلاحَ المـرءِ يُصلِـحُ أهلَـهُ   ويُعْديهـم داءُ الفَسـادِ إذا فَسَــد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصف الدنيا: أولها عناء وأخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، مَنْ صح فيها أمن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فُتِن، ومن افتقر فيها حَزِن، وَمَنْ ساعاها (أي سابقها) فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن نظر اليها أعمته، ومن نظر بها بَصرَّته.

وقال بعض البلغاء يصف الدنيا: خيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة، ولذاتها فانية وتبعاتها باقية، فاغتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من دنياك لأخرتك.

وفي حديث مرسل" جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال : "حسن الخُلُق"،

ثم أتاه من قِبَل يمينه فقال: ما الدين؟

قال: "حسن الخلق"،

ثم أتاه من قِبَلِ شماله، فقال: ما الدين؟

قال: "حسن الخُلُق"،

ثم أتاه من ورائه، فقال: ما الدين؟

فالتفت إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: "أما تفقه، هو أن لا تغضب"

أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن عبد الرحمن بن صخر أن رسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: "أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا خَلِيلِي حَسِّنْ خُلُقَكَ وَلَوْ مَعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ كَلِمَتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ، أَنْ أُظِلَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِي وَأَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِي".

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

تم بحمد الله صبيحة يوم الأحد ٢٤ شوال ١٤٣٦هـ الموافق ٩ آب ٢٠١٥م،

والحمد لله أولاً وآخرا، وسلام على عباده الذين اصطفى،

اللهم انفع به العباد والبلاد، وتقبله منا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، واقبلنا على ما فينا، واغفر لنا ولوالدينا، واختم لنا بالحسنى وارحمنا وأرحم والدينا والمسلمين، وكل من قرأه، ونشره، وعمل به، وكل من قال آمين.

المراجع

١. أدب الدنيا والدين. لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢. إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام الإمام محمد بن محمد الغزالي.

٣. المجموع، للحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر باعلوي، دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٤. ديوان الإمام الشافعي.

٥. الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، ديوان الإمام الحداد، للحبيب عبدالله بن علوي بن محمد الحداد الباعلوي الحسيني الحضرمي التريمي.

٦. دراسات فنية في الأدب العربي، الدكتور عبدالكريم اليافي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان. ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م